الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

كنيسة نسك



القمص تادرس يعقوب ملطي

الكنيسة الأرثوذكسية
« كنيسة الاسكندرية »

الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

كنيسة نسك

القمص تادرس يعقوب ملطى

إكتفيت بذكر الهوامش فى نهاية كل مقال إنجليزى منعاً من التكرار

الجمع : مركز الدلتا للجمع التصويرى باسبورتنج
المطبعة : الانبا رويس (الأوفست)



حضرة صاحب القداسة والغبطة

البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

الرهبنة والاستشهاد

الرهبنة هى « هبة مصر العظمى للعالم[1] » ، وإحدى الثمار العذبة التى اقتنيناها من فترة الاضطهاد التى اجتازتها كنيسة مصر . وكما يقول المؤرخ يوسابيوس أن مسيحيين كثيرين من المناطق الآهلة بالسكان فى مصر قد انطلقوا إلى البرارى[2] . لقد توقف الاضطهاد (إلى حين) أما هم فاستحسنوا البقاء فى الصحارى يمارسون الحياة الملائكية على الدوام ، مكرسين حياتهم للصلاة والتسبيح لله كرهبان .

من جانب آخر ، فى كل مرة توقفت موجة اضطهاد اشتاق بعض المسيحيين إلى نوال إكليل الاستشهاد ، فهربوا إلى البرية كما إلى ساحة الاستشهاد ، يمارسون حياة الإماتة وإنكار الذات كل يوم . فلا عجب إن امتلأت صحارينا بأعداد ضخمة من المتوحدين فى القرن الرابع عندما استقر السلام فى الكنيسة . هكذا عوض « الاستشهاد بالدم » أخضعوا أنفسهم للاستشهاد بالنية (الاستشهاد الداخلى) ، الذى هو صراع ضد الشياطين وضد الشهوات الجسدية وغيرها من الخطايا .

نذكر على سبيل المثال ، القديس العظيم الأنبا أنطونيوس ، أب الرهبنة ، فقد اشتاق إلى الاستشهاد ، وإذ لم يشأ الله له ذلك احتمل الاستشهاد بالنية كقول القديس أثناسيوس : « عندما توقف الاستشهاد تماماً ، واستشهد الطوباوى الذكر الأسقف بطرس ، ترك (الإسكندرية) وعاد إلى قلاية توحده ، فكان شهيداً بالنية كل يوم ، يحارب فى معارك الإيمان على الدوام ، ممارساً الحياة النسكية القاسية بغيرة ... »

حتى فى القرن الثانى ، وسط موجات الاضطهاد العنيفة ، تحدث القديس اكليمنضس وأوريجانوس عن النسك كاختيار يومى للاستشهاد .

يثير العلامة أوريجانوس فى نهاية كتابه « الحث على الاستشهاد » : ما الفائدة من الإعداد للاستشهاد ، إن كان الاستشهاد لا يحلّ بنا فى النهاية ؟ ، يجيب بغير تردد ، بأنه متى كان الإعداد حاراً بما فيه الكفاية ، يُحسب استشهاداً حقيقياً بدون سفك دم ! . ويقدم القديس كبريانوس ذات التعليم . هذا ولم يتردد القديس اكليمنضس الاسكندرى فى القول بأن كل إنسان يستطيع أن يجعل من موته استشهاداً إن كان قد أعد نفسه لذلك بتدابير لائقة[٣] . إنه يقول : [إن كان الاستشهاد يحوى شهادة لله ، فإن كل من يسلك فى معرفة الله بنقاوة ، ويطيع الوصايا ، هو شهيد فى حياته وبكلماته[٤]] .

يقول القديس كبريانوس الشهيد بأن الكنيسة تتزين بطريقين من الاستشهاد ؛ الاستشهاد الأحمر الذى يتحقق فى فترات الاضطهادات ، والاستشهاد الأبيض أو الأخضر فى أزمنة السلام .

يليق بنا أن نلاحظ أنه بينما كانت الكنيسة كلها فى القرن الرابع فى خطر من الانزلاق نحو العالم ، لأن المسيحية صارت ديانة الدولة ، وانفتح قصر الإمبراطور تماماً أمام رجال الدين ، إذ بكنيسة مصر تجتذب الكنيسة أجمعها نحو البرية ، أى نحو الحياة الداخلية ، تمارس الحياة السماوية ، مستهينة بالمجد الأرضى .

الرهبنة والاتجاه الإسخاتولوجى (الإنقضائى)

ليس بدون سبب بدأت الحركة الرهبانية فى مصر ، فقد حملت الكنيسة المصرية ولا تزال تحمل اتجاهاً أخروياً (إسخاتولوجيّاً) ، ليس فقط فى عبادتها وإنما فى كل سبل حياتها . هذا الإتجاه دفع الكثير من المؤمنين نحو البرارى ، لا للهروب من مسئولياتهم ، وإنما للصراع ضد الظلمة بقصد إعلان ملكوت الله القاطن فى قلوبهم. لقد صاروا رهباناً لهدف واحد ، وهو بلوغ ملكوت السموات الذى ليس ببعيد عنهم . يقول الأب مار إسحق السريانى : « إن كنت نقياً فالسماء فى داخلك ، والملائكة ورب الملائكة داخل نفسك[٥] » . وجاء عن القديس باخوميوس أنه « فى نقاوة قلبه نظر الله غير المنظور كما فى مرآة[٦] » . كثيراً ما وُصفت حياة آباء البرية أنها فردوس . فبالحقيقة ، حاول المتوحدون أن

يصيروا فى براءة آدم ، بالتخلص من كل الرذائل والشهوات ، فتقبّل بعضهم طعامهم من أيدى ملائكة أو من الطيور ، وصارت الحيوانات المفترسة خاضعة لهم . هكذا لم تعد البرية مجرد عودة إلى الفردوس القديم بل صارت عربوناً للفردوس العتيد ؛ بمعنى أن الرهبان عاشوا فوق التاريخ ، عبروا به إلى الماضى كما إلى المستقبل ، تاركين عالم الخطية ، ليعيشوا فى حضرة السيد المسيح الذى رأوه روحياً ودخلوا معه فى حوار(٧) .

إذ سمع أحد الفرنسيين (أهل الغال) عن المتوحدين المصريين ، قال : « نحن أهل الغال لا نُلزم بالحياة على شاكلة الملائكة(٨) » . ووصف القديس يوحنا كاسيان — الذى زار مصر — الرهبان المصريين كبشر سمائيين أو ملائكة أرضيين .

حقيقة إنجيلية

نرتبط الحركة الرهبانية بتاريخ النسك الإنجيلى الذى ورثناه عن التعليم المسيحى منذ عهد مبكر . ففى البداية كان النسك يُمارس بطريقة فردية دون أن يعتزل المؤمن بيته أو أسرته أو يترك الجماعة الكنسيّة وحياته فى المدينة ، غير أن البعض اعتزل العالم طالباً السكون والوحدة بعيداً عن المناطق الآهلة بالسكان(٩) .

الحياة الرهبانية فى جوهرها هى حياة إنجيلية . إذ يحثنا الإنجيل : « لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟! » مت ١٦ : ٢٦ . بمعنى آخر أن شيئاً واحداً له كل التقدير لدى المؤمن وهو النفس ، بجوارها يُحسب العالم كله كلا شيء(١٠) . ركزت الرهبنة على هذا الفكر

أُوحى للقديس أنبا أنطونيوس ، بطريرك (أب) الحياة الرهبانية ، عن هذا الطريق وهو فى داخل الكنيسة ، عند سماعه كلمات الإنجيل : « إذهب وبع كل مالك ووزعه على الفقراء وتعال اتبعنى ... » . لقد كرّس كل حياته لا ليخلق وسيلة جديدة للحياة ، ولا ليدرب الآخرين على الحياة النسكية ، وإنما ليتمم الوصية الإنجيلية . عاش حياته الروحية لا يملك سوى الإنجيل ، مكتوباً لا على ورق بل فى داخل نفسه .

يليق بنا أن ندرك أن الممارسات النسكية التى جاهد فيها الرهبان المصريين لم تكن غاية فى حد ذاتها . إنما كانت رغبتهم العميقة هى أن يموتوا عن ذواتهم ، عن إنسانهم العتيق ، لكى يتحرر فيهم الإنسان الجديد الذى هو مسكن السيد المسيح . النسك هو خبرة لا لضبط الجسد فحسب وإنما ليقظة الروح لتتقبل بطريقة كاملة اللوغوس الإلهى ، فتتهيأ للتبعية للمسيح عند أول دعوة ، وتمارس الشركة معه . لهذا نسمع أحد الآباء المصريين يخبر القديس يوحنا كاسيان : « الصوم بمبالغة يولد شراً يماثل النهم[١١] » .

إن رجعنا لحركة الرهبنة اليهودية فى قمران ، على شاطىء البحر الميت (٢٠٠ ق.م. — ٢٠٠ م) يمكننا القول بأنها حركة كتابية أيضاً قامت على إشعياء ٤٠ : ٣ ، إذ ذهبوا إلى البرية ليعدوا الطريق له ، كما هو مكتوب : « فى البرية أعدوا طريق الرب ، قوّموا فى القفر سبيلاً لإلهنا[١٢] » . ففى هدوء البرية ترجّى الرهبان اليهود ليس فقط الهروب من شر أورشليم وإنما حفظ ناموس موسى بطريقة كاملة وطهارة كما جاء فى سفر اللاويين بطريقة حازمة : « يطلبون الله بكل قلبهم وكل نفسهم وما هو حق وصالح أمامه كما أوصى على يدى موسى وكل خدامه الأنبياء[١٣] » .

الرهبنة والحياة المسيحية

وصية السيد المسيح للشاب الغنى أن يبيع كل ما يملك ويوزعه للفقراء ، ويتبعه (مر ١٠ : ٢١ ؛ مت ١٩ : ٢١ ؛ لو ١٨ : ٢٢) صارت العلامة المميزة للرهبنة المسيحية حياة ربنا يسوع نفسه كانت نموذجاً للطهارة ، وأيضا فقره وطاعته للآب هذه كلها أسس الرهبنة .

فى الحقيقة أن « الحياة الرهبانية » فى العصور الأولى لم تكن سوى ممارسة الحياة المسيحية الكاملة . فالراهب يعيش فى البرية بعيداً عن ارتباكات العمل والإهتمامات الأسرية والأعمال الكهنوتية . كانت الرهبنة حركة مسيحية شعبية ؛ حتى نظام الشركة كان يهدف نحو خلق أسرة مسيحية مثالية دون ارتباط بخدمة الكهنوت .

الرهبنة والفلسفة

لم يكن مؤسسو الرهبنة المصرية من فلاسفة العالم الهلّينى بل مجرد مؤمنين بسطاء ، ليس لهم أفكار يونانية . استحسنوا أن يُمتصوا بالكامل فى تتميم وصايا الرب من الانشغال بأفكار ومباحثات فلسفية ، لكنهم خلال بساطتهم اجتذبوا فلاسفة ألقوا بخبراتهم الفلسفية ليبدأوا حياتهم كتلاميذ الرهبان بسطاء .

فالقديس أرسانيوس الفيلسوف ومعلم الأميرين أركاديوس وهونوريوس ، ابنى الإمبراطور ثيؤدوسيوس الأول ، ذهب إلى الإسقيط (وادى النطرون) ، ليعيش كراهب تحت إرشاد هؤلاء الرهبان البسطاء .

سُئل القديس أرسانيوس : « أيها الأب أرسانيوس كيف تسأل هذا الفلاح عن أفكارك وأنت تجيد اللاتينية واليونانية ؟ » فأجاب : « حقاً ، قد تعلمت اللاتينية واليونانية ، لكننى لم أعرف بعد ألفا قيتا التى لهذا الفلاح[١٤] » .

أيضا قال القديس أرسانيوس : « لم نقتنِ شيئاً من تعليمنا الزمنى ، أما هؤلاء الفلاحون المصريون فيطلبون الفضائل بجهاد عظيم[١٥] » .

كان طبيعياً أن يأخذ بعض الرهبان موقف عداوة مُرّة تجاه العلامة أوريجانوس ، وقاموا بدور خطير فى مشكلة « الأوريجانية » ، لكن بالتدريج تعاطف الرهبان مع التعليم الفلسفى .

الرهبنة والأدب المسيحى

بالرغم من عدم اهتمام الرهبان بالكتابة ، لكن الحركة الرهبانية خلقت نوعاً من الأدب المسيحى ، مثل الأنظمة الرهبانية ، مقالات نسكية ، كتابات خاصة بسير الرهبان وبالتثقيف الروحى .

أهم الكتابات النسكية هى :

١ ــ « الأبوفثجماتا باتريم »أى « أقوال الآباء » . نما هذا الأدب فى القرن الرابع وسط الرهبان فى برارى مصر وسوريا وفلسطين ، حيث بدأ أولًا بطريقة

شفوية ، ثم تحول إلى كتابة مذكرات عن التقليد الرهبانى بالقبطية والسريانية واليونانية وأخيراً باللاتينية . حوت هذه الكتابات كلمات مشاهير الرهبان والقادة الروحيين وتصرفاتهم وذلك من أجل بنيان الأجيال الرهبانية الجديدة .

هذه الكتابات يمكن تقسيمها إلى صنفين مختلفين : كتابات مرتبة حسب الحروف الهجائية لأسماء المتكلمين ، وأخرى مرتبة حسب المواضيع المختلفة فى تجميعات قليلة لكل موضوع .

ليس من أعمال يمكن أن تُقرّبنا إلى الرهبان الأوائل مثل هذه الأقوال ، التى لا تزال حيّة أكثر من أى مصدر آخر[١٧] .

٢ ــ « **هستوريا موناخورم** » [التاريخ الرهبانى] . وهو عمل فى شكل سير للرهبان ، غايته تسجيل مذكرات بعثة خاصة من سبعة زائرين لرؤية المتوحدين ؛ تاريخ هذه البعثة حوالى سنة ٣٩٤/٣٩٥ م . واضع هذا العمل يدَّعى أنه أحد هؤلاء الزوار السبعة . النص اللاتينى يبرز أن الكاتب هو روفينوس ، لكنه بالتأكيد لم يكن أحد الزوار السبعة فى ذلك التاريخ . كثير من المخطوطات ــ من بينها السريانية ــ تنسب العمل للقديس جيروم ، وإن كان هذا الأمر مشكوك فيه جداً .

٣ ــ « **سير آباء** » : تنقسم إلى نوعين ؛ سير لمتوحدين بصورة فردية ، وتجميع لمجموعة من السّير القصيرة . لدينا سيرة القديس أنطونيوس بقلم القديس أثناسيوس ، وحياة الأنبا بولا السائح ، والقديس باخوميوس وتلميذه تادرس ، والقديس شنودة ...

٤ ــ « **التاريخ اللوسياكى** » : بقلم بالاديوس أسقف هيلينوبوليس ، وضعه عام ٤١٩ ــ ٤٢٠ م ، ويعتبر مصدراً لتاريخ الرهبان . يعطى هذا العمل انطباعاً قوياً بأن الكاتب له معرفة شخصية ببعض ممن كتب عنهم . وقد جاء العنوان فى بعض المخطوطات : « حياة الآباء القديسين » ، ومنذ وقت مبكر عُرف باسم « بستان الآباء » ، غير أن كلمة « البستان » صارت كلمة يونانية تطلق على كل وصف للرهبان المصريين[١٩] .

٥ ــ كتابات خاصة بالسلوكيات اللاهوتية ، ككتابات الأب إفجاريوس (أوغريس) ، والقديس كاسيان الخاصة بدراسة عن الرهبان المصريين الأوائل . هذه الكتابات تهدف نحو مساندة الرهبان على ممارسة الحياة الفاضلة التأملية .

أشكال الرهبنة

أخذت الرهبنة ثلاثة أشكال رئيسية ، جميعها ظهرت فى مصر فى القرنين الثالث والرابع ، ولا تزال هذه جميعها قائمة فى كنيستنا اليوم .

(ا) **التوحد** : عاش المتوحدون فى عزلة تامة ، يزورون « الأب » عند طلب المشورة . كل متوحد ينظم لنفسه صلواته وملابسه وطعامه وعمله اليدوى .

انطلق بعض المتوحدين إلى البرارى الداخلية ، واستقروا هناك لمدة عشرات السنوات لا يرون وجه إنسان . القديسة مريم المصرية هى إحدى النساء القليلات اللواتى سلكن هذا الطريق ، وتحسب ضمن المتوحدين الذين يلقبون بالسواح ، إذ كانوا فى الغالب يعيشون بلا « قلاية » ، بل يجولون فى البرية .

(ب) **نظام الشركة** : أسسه القديس باخوميوس فى صعيد مصر ، فيه يعيش الرهبان كجماعة داخل جدران دير ، فى حياة شركة معاً ، تحت قيادة « أب » ، يخضعون لقوانين معينة . فى ظل هذا النظام لم تفقد الرهبنة المسيحية الرغبة نحو التوحد ، غير ان « الشركة » لم تكن سُلماً للتوحد .

(جـ) **نظام الجماعات** : أو نظام شبه توحدى . ويعتبر الطريق الوسط بين التوحد والشركة .

طريقة حياة القديس أنبا أنطونيوس كما وصفها القديس أثناسيوس كانت فى الحقيقة شبه توحدية ، إذ كان الرهبان يعيشون فى مغائر أو قلالى منفصلة ، يجتمعون فى المناسبات للخدمة الإلهية أو المناظرات الروحية . هكذا كان القديس أنبا أنطونيوس يهيىء الطريق لنظام الجماعات .

تأسس نظام الجماعات فى نتريا والاسقيط على أيدى القديسين أمون ومقاريوس الكبير . فى هاتين المنطقتين لم يعش النساك فى عزلة كاملة وإنما فى قلالى أُقيمت

على مسافات حتى لا يرى الواحد الآخر ولا يسمعه . وكانوا يجتمعون معاً للصلاة فى السبوت والآحاد .

تطور النظم الرهبانية

بلا شك لم تظهر النظم الرهبانية المتنوعة خلال خطة كنسية مسبقة ، إنما ظهرت إلى النور خلال حب طبيعى التهب بقوة فى قلوب كثير من المسيحيين الأوائل .

١ ــ فى العصر الرسولى ، مارس كثير من المؤمنين النسك بغية التمتع بكمال الإنجيل . لقد حرموا أنفسهم من كل لذة أرضية دون الانسحاب من وسط عائلاتهم أو مجتمعهم .

٢ ــ أشعل الاتجاه الاسخاتولوجى فى الكنيسة شوق المؤمنين نحو مجىء عريسهم ، فاستحسن بعض المؤمنين أن يعيشوا فى بتولية مكرسين كل أوقاتهم للعبادة كتهيئة روحية لوليمة العرس السماوى . لقد قدّم الإنجيل وأيضاً رسائل القديس بولس التقدير المسيحى الإيجابى للزواج ، إلا أن البتولية وجدت لها مركزاً أعظم ، بكونها جهاداً يحقق فى الحال وبطريقة كاملة ما يحققه الزواج بطريقة جزئية وكصورة للحقيقة ، وهى اتحاد المسيح بالكنيسة ، إتحاد الله الكلمة مع الجنس البشرى المتمتع بالخلاص من الخطية بصليب ربنا يسوع[٢٠] .

فى القرن الثانى ، كانت العذارى المسيحيات فى سميرنا وكورنثوس يسرن فى المواكب الليتورجية خلف الكهنة ، أمام الأرامل . كذلك وجدت جماعات كثيرة من العذارى فى الإسكندرية وفى مدن كثيرة فى العالم ، فى القرن الثانى . وكانت المقالات الخاصة بالبتولية تمثل جزءاً حياً من كتابات الآباء خلال الثلاثة القرون الأولى .

٣ ــ شعر بعض العذارى والنساك أنهم فى حاجة ليس فقط أن يعيشوا فى البتولية دون التزام بمسئوليات أسرية ، إنما الى جو روحى معين . فكانت النساء (العذارى) يعشن معاً فى بيت تسند كل منهن الأخريات روحياً . وفضّل الرجال

ترك المدن ليعيشوا فى أكواخ بسيطة فى القرى ، وكانوا يدعون « مكرسين » ، اذ لم تكن كلمة « راهب » معروفة .

انضمت أخت القديس أنطونيوس إلى جماعة من العذارى « باثينون » ، بينما عاش هو فى البداية فى كوخ بالقرب من النيل .

إذ شعر بعض المسيحيين بالعطش نحو الحياة الملائكية ، هربوا إلى البرارى . نذكر على سبيل المثال ، فى عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس (١٣٨ــ١٦١ م) ، قرر شخص يُدعى فرونتونيوس أن يزهد العالم ، وقد اقتفى أثره سبعون شخصاً آخرين تمثلوا به منطلقين نحو الصحراء[٢١] . عاش القديس بولا السائح فى البرية أكثر من تسعين عاماً (حوالى ٢٥٠ــ٣٤١ م) ، ومع هذا فقد حُسب القديس أنطونيوس أباً للعائلة الرهبانية ، للأسباب التالية :

(ا) علاقته الوثيقة بقادة الكنيسة مكنته من فتح أبواب الكنيسة على الرهبنة ، من بين هؤلاء القادة القديس أثناسيوس ، والقديس ديديموس الضرير مدير مدرسة الإسكندرية ...

(ب) بعد حوالى عشرين عاماً من العزلة التامة ، انفتحت مغارته ليس فقط أمام المشتاقين للحياة الرهبانية ، بل وأيضا أمام الفلاسفة اليونانيين والحكام ... لهذا قال له القديس هيلاريون الذى من فلسطين : « سلام لك ، يا عمود النور ، المضيىء للعالم[٢٢] » .

(جـ) كان القديس أنطونيوس عضواً عاملًا فى الكنيسة . فبجانب صلواته غير المنقطعة لحساب الكنيسة كلها ، زار الإسكندرية فى زمن الاضطهاد ليخدم المعترفين ويشجعهم فى المحكمة ، كما سند القديس أثناسيوس فى صراعه ضد الأريوسية .

٤ ــ بينما كان نظام التوحد يزدهر ، أدرك المتوحدون أنفسهم أن هذا النظام لا يناسب كل راغبى الحياة الرهبانية . هذا وكان لهذا النظام أيضا مساوئه ، إذ بالغ بعض المتوحدين فى ممارساتهم النسكية وأساؤا التصرف . على أى الأحوال

هذه المشاعر قادت إلى ظهور النظامين الآخرين من الرهبنة : نظام الجماعات ونظام الشركة .

تكامل الأنظمة الرهبانية الثلاثة

ظهور هذه الأشكال المختلفة من الرهبنة فتح الطريق أمام الكثير من المؤمنين للتمتع بالحياة الملائكية ، إذ كان كل واحد يختار النظام الذى يناسب شخصيته وإمكانياته .

يليق بنا أن نلاحظ أن قادة هذه الأنظمة لم يتعصبوا لأنظمتهم بل مدح كل منهم النظامين الآخرين . فالقديس أنطونيوس فى حديثه مع الأخ زكاوس ، أحد تلاميذ القديس باخوميوس ، مدح نظام الشركة ، قائلًا إنه نظام موحى به من الله ، وأنه مسرور به جداً ،كما قال له : « أنتم جميعكم صرتم كالأب باخوميوس . أقول لكم ، إنها لخدمة عظيمة قام بها أن يجمع إخوة كثيرين هكذا ، سالكاً طريق الرسل ...[٢٣] » . وأيضا القديس باخوميوس ، المعاصر للقديس أنطونيوس وهو أصغر منه ، فتح أديرته للمتوحدين الذين عاشوا فى برارى تلك المنطقة ، وكان له أحاديث كثيرة معهم بخصوص الحياة الروحية ، كما مدح القديس أنبا أنطونيوس بكونه المثل الكامل لحياة الوحدة ، قائلًا : « فى جيلنا رأيت فى مصر ثلاثة رؤوس نالوا نعمة من الله لنفع كل الفاهمين : الأسقف أثناسيوس ، البطل المجاهد من أجل الإيمان بالمسيح حتى الموت ؛ وأبا أنطونيوس القديس ، المثل الكامل لحياة الوحدة ، وهذه الجماعة التى هى شكل لكل الراغبين فى أن تجتمع النفوس معاً فى الله ، للاهتمام بها حتى يصيروا كاملين[٢٤] » .

أيضاً كان مؤسسو نظام الجماعات على اتصال وثيق بالقديس أنطونيوس ، يشجعون بعض تلاميذهم للحياة كمتوحدين ، كما كانوا على اتصال بالأديرة الباخومية ؛ فقد زار القديس مقاريوس الإسكندرى القديس باخوميوس وبقى فى ديره بطبانسين أربعين يوماً .

+ + +

١ ـــ القديس بولا الطيبى
(رئيس السواح)

يعتبر القديس بولا الطيبى أول المتوحدين . فى عام ٣٧٤ أو ٣٧٥ م كتب القديس جيروم سيرته معتمداً على أماثوس ومقاريوس تلميذى القديس أنبا أنطونيوس .

القديس بولا من مواطنى طيبة السفلى (شمال الصعيد) بمصر ، نال قسطاً وافراً من العلوم اليونانية والمصرية . إذ بلغ السادسة عشر من عمره نال ميراثاً كثيراً عن والديه . وفى أثناء اضطهاد داكيوس (حوالى ٢٥٠ م) انطلق إلى البرية ، بعد أن تعرض لرغبة أخيه بطرس فى اغتصاب ممتلكاته [جاء عنه أن بطرس أخاه أراد اغتصاب النصيب الأكبر من الميراث ، وإذ اشتد الجدل بينهما أراد القديس بولا أن يتوجه للقضاء . فى الطريق رأى جنازة لأحد عظماء المدينة الأغنياء ، فسأل نفسه إن كان هذا الغنى قد أخذ معه شيئاً من أمور هذا العالم ؛ استتفه هذه الحياة الزمنية ، والتهب قلبه بالميراث الأبدى ، لذا عوض انطلاقه للقضاء خرج من المدينة ، ودخل فى قبر مهجور يقضى ثلاثة أيام بلياليها طالباً الإرشاد الإلهى . ظهر له ملاك يرشده إلى البرية الشرقية ، حيث أقام بجبل نمرة القريب من ساحل البحر الأحمر أكثر من ٩٠ عاماً لم يشاهد فيها وجه إنسان] .

قيل أنه بعد انقضاء الاضطهاد تمتع القديس بحياة الوحدة والتأمل فبقى هناك حتى يوم نياحته ، وكان ذلك حوالى عام ٣٤١ م .

زيارة القديس أنطونيوس له

إذ كان الطوباوى بولا قد بلغ المئة والثالثة عشر من عمره[٢٥] ، يمارس الحياة السماوية وهو على الأرض ، وكان القديس أنطونيوس قد بلغ التسعين من عمره يقطن فى موضع آخر يمارس الوحدة ؛ وقد ظن الأخير أنه لا يوجد راهب آخر يسبقه فى الكمال ويقطن فى البرية . على أى الأحوال ، وسط سكون الليل أُعلن

له أنه يوجد آخر أفضل منه يقطن أماكن داخلية فى البرية ، ينبغى أن يذهب إليه ويزوره .

عند الفجر بدأ الشيخ الوقور ينطلق بغير توانٍ إلى حيث لا يدرى ، بقدميه الضعيفتين ، يستند على عصا غليظة . وبعناية الله بلغ القديس مغارة الأنبا بولا بعد قرابة يومين . هناك وجد ينبوع ماء ونخلتين ، وكان باب المغارة مغلقاً . سجد القديس أنطونيوس أمام الباب حتى الأرض وبقى هناك حتى الساعة السادسة (١٢ ظهراً) أو أكثر ، يتوسل إليه أن يقبله ، قائلًا له :

« أنت تعرف من أنا ، ولماذا جئت ؛
إننى أعرف أنى لست أهلًا أن أراك ؛
لكننى لن أنطلق حتى أعاينك .
أنت تستضيف الوحوش ، فلماذا ترفض إنسانا ؟!
لقد طلبت فأجد ،
قرعت فيفتح لى .
فإن لم يتحقق لى هذا ، سأموت هنا أمام بابك .
وأنت بالتأكيد ستدفننى إن أنا مت ... »

لقاء مقدس

إذ وقف القديس أنطونيوس بلا حراك ، انفتح الباب ، ورحّب به الطوباوى بولا وقد انهمرت منه دموع الفرح . قبّل أحدهما الآخر ، وحيّا كلاهما الآخر بإسمه ، مقدّمين الشكر لله معاً . وبعد القبلة المقدسة ، جلس الطوباوى بولا بجوار القديس أنطونيوس ، وقال له :

« أنظر إلى الإنسان الذى طلبته بجهاد عظيم هكذا ،
فإن أطرافه قد حطمها الزمن ،
شيبة شعره لا تُنافس ،
أنظر ، ها أنت ترى إنساناً يعود حالًا إلى التراب .
لكن بالحق « المحبة تحتمل كل شيء » ١ كو ١٣ : ٧ .

إخبرنى ، فإنى أسألك : ما هو حال جنس البشر ؟
هل تُقام بيوت جديدة فى المدن القديمة ؟
أية حكومة تسود العالم ؟
ألا يزال يوجد أناس ساقطون فى حبائل رعب الشياطين ؟ »

العناية الإلهية

إذ كانا يتحدثان عن عجائب الله حتى الغروب ، نزل غراب كان مستقراً على نخلة وألقى بخبزة كاملة أمامهما . عندئذ قال الطوباوى بولا : « أنظر ، فإن الرب المحب بالحقيقة ، والرحوم حقاً ، يرسل لنا طعامنا . فإننى لسنوات طويلة أتقبل كل يوم نصف خبزة ، والآن ضاعف السيد المسيح من أجلك « تعيين » جنوده ... »

أُثير حوار بينهما فيمن يكسر الخبزة . فالطوباوى بولا كمستضيف طلب من القديس أنطونيوس ذلك ، بينما شعر الأخير أن القديس بولا هو الأكبر ومن حقه أن يقوم بكسر الخبزة . أخيراً استقر الأمر أن يمسك كل منهما بجانب من الخبزة ، ويقسماها فيما بينهما . وقد صار هذا التقليد متبعاً إلى يومنا هذا فى الكنيسة القبطية بين الكهنة عند توزيع « البركة » بينهم .

سؤال القديس بولا

فى اليوم الثالث تحدث القديس بولا مع القديس أنطونيوس ، هكذا : « إننى أعرف يا أخى منذ زمن طويل أنك تقطن فى هذه المناطق ، وقد وعدنى الله أن تكون فى صحبتى . والآن قاربت ساعة رقادى جداً ؛ وأنا اشتاق أن أنحل وأكون مع المسيح (فى ١ : ٢٣) ، فتنتهى مدة حياتى ، وأنال إكليل البر (٢ تى ٤ : ٧ ، ٨) ، لذلك أرسلك الرب لتدفن جسدى المسكين ، فيعود التراب إلى التراب » .

إذ سمع القديس أنطونيوس ذلك سكب الدموع مع تنهدات ، سائلًا إياه ألا يتركه ، وأن يقبله معه فى هذه الرحلة . غير أن صديقه أجابه : « يلزمك ألا تطلب ما هو لنفسك (فى ٢ : ٢١) ، بل ما هو للآخرين . حقاً يليق بك أن

تترك ثقل الجسد وتتبع الحمل (رؤ ١٤ : ٤) ، لكنه أيضا يليق بك لأجل راحة إخوتك أن تعلمهم بمثالك . أسألك أن تسرع ، إن كان هذا ليس بكثير عليك ، وتحضر لى ثوب الأسقف أثناسيوس الذى وهبك إياه ، لكى تكفن جسدى المسكين » .

يعلق القديس جيروم ، كاتب سيرة الطوباوى بولا ، بأن الطوباوى سأل ذلك من القديس أنبا أنطونيوس ليس لأنه كان مهتماً بجثمانه المسكين أن يتغطى أو يبقى عارياً ، وإنما لأنه أراد أن يعفيه من الحزن بمشاهدة موته .

دُهش القديس أنطونيوس إذ وجد القديس بولا قد سمع عن القديس أثناسيوس وعن ثوبه ، إذ كان قد دخل البرية فى عهد البابا ديونسيوس الرابع عشر .

بكى القديس أنطونيوس فى داخله ، ثم قبّل عيْنىْ الطوباوى بولا ويديه وعاد إلى ديره . وإذ بلغ مسكنه وجد تلميذيه اللذان كانا يخدمانه يسرعان نحوه ليلتقيا به ، ويسألانه : « لماذا تأخرت طويلًا هكذا أيها الأب ؟ » . أجابهما : « ويل لى أنا الخاطىء ، فإننى لست مستحقاً أن أُدعى راهباً ! لقد رأيت إيليا ، رأيت يوحنا فى البرية ، حقا لقد رأيت بولس فى الفردوس ! » . عندئذ ضم شفتيه ، وقرع صدره ، ثم أحضر الثوب من قلايته ، وإذ سأله تلميذاه أن يوضح لهما الأمر أكثر ، أجاب : « يوجد وقت للصمت ، ووقت للكلام » .

انطلق دون أن يأخذ معه قليلًا من الطعام ، وعاد فى ذات الطريق الذى جاء منه مشتاقاً أن يرى الطوباوى بولًا ، إذ كان متعطشاً إليه ، كل أفكاره ونظراته نحوه وحده .

فى الطريق رأى القديس أنطونيوس الطوباوى بولا ، وكان يضىء كالثلج فى بياضه ، يرتفع نحو الفردوس وسط طغمة من الملائكة ، وجماعة من الأنبياء والرسل ؛ للحال سقط القديس أنطونيوس على وجهه ، وألقى بالرمل على رأسه ، وهو يتنهد ويبكى ، قائلًا : « لماذا أقصيتنى عنك يا بولا ؟ لماذا خرجت دون أن تودعنى ؟ هل أظهرت نفسك لى متأخراً لكى تنطلق هكذا سريعاً ؟ »

أكمل القديس الطريق بسرعة فائقة ، فكان كطائر يطير . وإذ دخل المغارة

وجد الجسد الميت راكعاً ، بينما كان الرأس منتصباً ، واليدان مبسوطتين نحو السماء . فى البداية ظنه حياً ، فجاء يصلى بجواره ، وإذ لم يسمع تنهداته التى كانت تصدر عنه أثناء صلاته ، سقط على الأرض وصار يبكى ، فقد تحقق أنه حتى جسد القديس الفاقد الحياة قد رجع بالطاعة اللازمة لله الذى به تحيا كل الخليقة (رو ٤ : ٨) .

دفنـــه

إذ كفن الجسد وحمله خارجاً أمام مدخل المغارة ، ترنم بالتسابيح والمزامير ، لكنه بدأ يحزن لأن ليس لديه أداة يحفر بها قبراً . وإذ كان يفكر فى الأمر ، اندفع أسدان من البرية نحوه ، فخاف فى البداية ، لكنه رفع فكره نحو الله وانتظر متطلعاً إليهما كأنهما حمامتان . جاءا إلى الجثمان ، وتوقفا قليلاً ، وحركا ذيليهما ، ثم انحنيا عند قدميه ، وكانا يزأران بصوت عظيم ، كأنهما يعلنان حزنهما عليه . ثم صارا ينشبان الأرض بمخالبهما ، وبقوة يرفعان الرمل حتى حفرا مكاناً يكفى جثمان الطوباوى . فى الحال نشرا أذنيهما ، وأحنيا رأسيهما ، وجاءا إلى القديس أنطونيوس ، وصارا يلعقان يديه وقدميه ، كأنهما يطلبان بركته . قام القديس بدفن الجسد الطوباوى .

فى اليوم التالى ، ترك القديس أنطونيوس قلايته ، وأمسك بثوب القديس بولا الذى كان يشبه السلة المجدولة ، كان قد نسجه هذا القديس لنفسه من سعف النخيل ، وقد اعتاد البابا أثناسيوس (الـ ٢٠) أن يرتدى هذا الرداء فى أعياد القيامة والفصح ، بعد أن سلمه إياه القديس أنطونيوس .

يمكننا خلال هذه القصة التى رواها لنا القديس جيروم ، أن نقول بأن القديس أنطونيوس ، أب العائلة الرهبانية ، قد تسلم من السائح القديس بولا بركة حياة التوحد الكاملة ليودعها فى قلوب رهبانه . ويمكننا القول أيضا بأنه كما أرسل السمائيون والقديسون الراقدون مندوبين عنهم من ملائكة ورسل يكرمون هذه الحياة المقدسة عند نياحة القديس بولا ، هكذا أرسلت الكنيسة المنظورة القديس أنطونيوس يحمل ذات الرسالة باسمها .

+ + +

٢ ـــ القديس أنطونيوس

يعتبر القديس انطونيوس على وجه العموم أبا (بطريرك) الأسرة الرهبانية[١] ، وُلد حوالى سنة ٢٥١ من أبوين ثريين فى مدينة كوما[٢] (قمن العروس) بمصر الوسطى .

عندما مات والداه كان فى الثامنة عشرة من عمره ، تركا له رعاية أخته الوحيدة ديوس ، الأصغر منه . وفى ذات يوم ، بعد مرور ستة أشهر على وفاة والديه ، استوقفه فصل من الإنجيل كان يُقرأ عند دخوله الكنيسة ، حيث كان ربنا يحدث الشاب الغنى : « إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء... وتعال اتبعني » مت ١٩ : ٢١ . أخذ هذه النصيحة بجدية كدعوة شخصية موجهة إليه من قبل الله .

قام ببيع ثلاثمائة فدان من أجود الأراضى ، وقدم معظم الثمن للفقراء ، محتفظاً بالقليل لأخته . إذ أودع أخته فى بيت للعذارى صار حراً ، مكرساً حياته كلها للنسك تحت إرشاد رجل قديس يعيش بجوار كوما . هكذا اعتاد النساك الشبان أن يبدأوا بالتلمذة على يدى معلم أو « guru » يدربهم على أساسيات الحياة الروحية : الصلاة والصوم .

بعد فترة رحل القديس أنطونيوس إلى الصحراءالغربية ليجاهد بنفسه ، فلجأ إلى قبر مهجور منحوت فى جانب الجبل . وقد التزم صديق له أن يأتى إليه بخبز من حين إلى آخر وهو فى عزلته . وكان القديس يصارع ضد التجارب الجسدية ومحاربات الشياطين أثناء توحده .

فى سن الخامسة والثلاثين ترك هذا الموضع الهادىء ليستقر على الضفة الشرقية من النيل على « الجبل الخارجى » فى منطقةبسبير(حياته : ١٢) حيث عاش فى توحد تام . وبعد مرور عشرين عاماً اجتذبت شهرته أتباعاً له صاروا يقطنون

بجواره ، مشتاقين إلى الامتثال بحياته القدسية . هكذا اقتحموا عزلته ، ليصير القديس أنطونيوس قائدهم ، يعلمهم على الدوام بالكلام كما بالقدوة بحياته النسكية[٣] . بعد خمس سنوات عاد ليعتزل ثانية فى البرية الداخلية بجبل القلزم .

التوحد لم يجعل من القديس أنطونيوس إنساناً متأملاً بمعنى عدم الاكتراث بمصير إخوته ، إنما خلق منه أباً روحياً قبل كل شيء[٤] . لقد هرب من اهتمامات العالم لا من الحب . لهذا التزم بزيارة الاسكندرية أثناء اضطهاد المسيحيين بواسطة مكسيميان دازا عام ٣١٦ م . كان يهدف نحو التقدم للاستشهاد إن أراد الله له ذلك ، وقد قضى وقته يخدم المعترفين داخل المناجم والسجون (حياته ٤٦) . حزن لأن الله لم يسمح له بالاستشهاد ، وإذ انتهى الاضطهاد عاد إلى قلايته ليصير « شهيداً كل يوم بالنية ، مصارعاً فى معارك الإيمان » .

مرة أخرى زار الإسكندرية ليسند البابا أثناسيوس ضد هرطقة الأريوسية عام ٣٥٢ م، فخرج الوثنيون كما المسيحيون يحيون القديس الشيخ ، لكنه سرعان ما عاد إلى البرية ، إذ شعر أنه كالسمكة خارج الماء متى كان فى المدن[٥] .

جاء إليه أناس من كل أنحاء العالم إلى داخل أعماق البرية ينشدون البرء من أسقام أجسادهم ، وعقولهم ، وأرواحهم ، وكما حدث فى منطقة بسبير هكذا جاء إليه رهبان من أجل محبته طالبين مشورته .

فى عام ٣٥٦ م تنيح وهو فى الخامسة بعد المائة من عمره ، ولم يفصح الراهبان مقاريوس وأماتاس عن الموضع الذى دفناه فيه ، وقد ترك مقتنياته القليلة لأصدقائه ، ثوبا من الجلد ورداءً للبابا أثناسيوس ، وثوبا آخر من الجلد للقديس صرابيون ، وقميصا من الشعر للقديسين مقاريوس وأماتاس .

ديره ببسبير خرّج أبطالاً كثيرين ، منهم القديسين هيلاريون (إيلاريون) من غزة ، ومقاريوس الاسقيطى ، وأمون بجبل نتريا ، وبولس البسيط .

كتب القديس العظيم أثناسيوس حياته ، التى كان لها أثرها الفعّال فى نشر فكر الرهبنة فى العالم المسيحى .

جاء فى كتاب القديس أثناسيوس[٦] ، أن القديس أنطونيوس كان رجل « الحكمة الإلهية » ، مملوءاً نعمة ولطفاً ، مع أنه لم يتعلم القراءة والكتابة .

بين الفلاسفة

كان القديس أنطونيوس يتمتع بالحكمة العملية بدرجة عالية جداً . جاءه مرة اثنان من الفلاسفة ظانين أنهما يستطيعان أن يختبراه ، فعندما التقى بهما ، قال لهما خلال المترجم : لماذا تتكبدان أيها الفيلسوفان كل هذه المشقة لتأتيا إلى إنسان غبى ؟ وإذ أجاباه إنه ليس بالغبى بل بالحكيم جداً ، قال لهما : « إن كنتما قد أتيتما إلى رجل غبى فتعبكما باطل ، وإن حسبتمانى حكيماً فامتثلوا بى ، إذ يليق بالإنسان أن يمتثل بالصالح ... إننى مسيحى ! »[٧] .

مرة أخرى سأله فيلسوف : « كيف تصمد وأنت محروم من تعزيات الكتب؟» أجابه : « كتابى أيها الفيلسوف هو الطبيعة ، فإننى أستطيع قراءة لغة اللّه » .

جهاده الروحى

حورب القديس أنطونيوس بأفكار عن ممتلكاته ، والقلق على أخته ، وتذكر أصحابه ، ومحبة المال والشهرة ، والتلذذ بمباهج حياة الترف .

إذ عاش متوحداً هاجمه « القنوط (الضجر) ، فسقطت نفسه فى الملل وتشويش الأفكار ، فبدأ يقول للّه : « يارب ، أريد أن أخلص لكن هذه الأفكار لا تتركنى وحدى ، ماذا أفعل فى حزنى ؟ كيف أخلص منها ؟ » بعد قليل إذ نهض صار يمشى فى الهواء الطلق فرأى شخصاً ـــ كأنه هو بنفسه ـــ يجلس ليعمل ، ثم يقوم ليصلى . ثم يعود يجلس ويضفر سلة من سعف النخيل . هذا كان ملاك الرب أُرسل ليحذر القديس انطونيوس ويحثه ، إذ سمعه يقول : « افعل هذا فتخلص » ، عندئذ امتلأ فرحاً وتشجع ... [٨] .

إذ نال الغلبة على أفكاره وعلى الضجر حاربته الشياطين من الخارج كما حارب الشيطان الرب فى البرية ولم يجد فيه موضعاً له [٩] . بلغت هذه التجارب ذروتها عندما ذهب القديس أنطونيوس إلى احدى المقابر وأغلق على نفسه ، فهاجمته

الشياطين حتى جاء أصدقاؤه ووجدوه فاقد الوعى ، فحملوه إلى كنيسة القرية ظانين أنه مات . فى الليل استيقظ وصمم على العودة إلى القبر فى تحدٍ لهجمات الشياطين التى لم تستطع أن تغلبه . أخيراً أُستجيبت صلواته المُلحة وشتت نور المسيح الهادىء الخيالات الشيطانية ، عندئذ عاتبه القديس : « أين كنت ؟ لماذا لم تظهر من البداية لترفع عنى آلامى ؟ سمع الإجابة : « كنت هنا ياأنطونيوس، لكننى انتظرت لأشاهد جهادك ، فإنك إذ صمدت ولم تستسلم ، أكون عوناً لك على الدوام ، وأجعل اسمك معروفاً فى كل مكان »[١٠] .

طول أناته

أقتبس قصة عن سلوكه جاءت فى « الأبوفثجاماتا (أقوال الآباء) » تكشف عن طول أناته مع كل أحد . « حدث أن أخاً بدير أبّا إيليا حلت به تجربة فطُرد من الدير ، فجاء إلى الأنبا أنطونيوس فى الجبل ، وإذ مكث معه بعض الوقت أعاده أنطونيوس إلى الجماعة التى كان يعيش فيها ، وإذ رأوه طردوه مرة أخرى ، فعاد إلى الأنبا أنطونيوس يقول له : « لم يقبلونى يا أبى » . عندئذ أرسل إليهم الشيخ يقول : « غرقت سفينة فى البحر ، وفقدت كل متاعها الذى تحمله ، وبالجهد رجعت السفينة أخيراً إلى البر . هل ترغبون أن تغرقوا السفينة وهى على البر بعد أن رجعت سالمة من البحر ؟! » بهذا عرفوا أن الأنبا أنطونيوس هو الذى ردّه ، وللحال قبلوه »[١١] .

مع القديس ديديموس الضرير

كتب القديس جيروم إلى كاستريتوس ، رجل ضرير من بانونيا Pannonia يعزيه فى عدم قدرته على الإبصار ، يروى له القصة التالية[١٢] :

« دعا القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية الطوباوى أنطونيوس إلى المدينة ليفحم الهراطقة . فجاء ديديموس ، وهو رجل ذو ثقافة عالية فاقد البصر ، ليزور المتوحد ويتناقشا فى الكتب المقدسة ، فلم يتمالك أنطونيوس نفسه من الإعجاب بقدرته ونفاذ بصيرته ، فقال له : « إنك لا تحزن على فقدك بصرك ، أليس كذلك؟» خجل ديديموس أن يجيب ، لكن إذ كرر السؤال عليه ثانية وثالثة ،

اعترف بصراحة أن عدم ابصاره يسبب له حزناً عظيماً . هنا قال أنطونيوس : « إنى أندهش أن رجلاً حكيماً يحزن على فقدان ما يشترك فيه النمل والذباب والحشرات ولا يبتهج بالحرى (بالبصيرة الداخلية) التى لا يتأهل لها إلا القديسون والرسل » .

أشكال الرهبنة

القديس أنطونيوس يمثل نوعين من الرهبنة . أحدهما التوحد أو حياة الوحدة حيث يعيش كل راهب فى عزلة ، والآخر يمثل تطوراً للوحدة حيث يقطن الرهبان فى قلالى منفردة أو مغائر أو أى مأوى آخر ، تقترب من بعضها البعض لتكوين نوع من الصداقة . يمكن أن يكون بينهم راهب (أب) يرشدهم ، مثل هذا التجمع كان يعرف باسم « Laura »[١٣] .

كتاباته[١٤]

١ ـــ رسائله : كان يتبادل الرسائل مع الرهبان كما مع الأباطرة وكبار رجال الدولة .

(ا) يقول القديس أثناسيوس إن شهرة القديس أنطونيوس بلغت إلى الأباطرة ، فعندما سمع عنه قسطنطين وابناه قسطنطينوس وقسطنس كتبوا إليه مراراً كأب يسألونه أن يجيب عليهم . على أى الأحوال لم يعر اهتماماً بهذه الرسائل ولا فرح بها . فعندما كانت تصل إليه كان يعظ الرهبان ، قائلا : « لا تندهشوا إن كتب إلينا إمبراطور ، فإنه بشر ، لكن بالحرى تعجبوا أن الله يكتب الناموس للبشر ويتحدث إليهم خلال ابنه » (عب ١ : ٢) . لم يشأ أن يقبل الرسائل بحجة أنه لايعرف كيف يجيب عليها ، لكن إذ ألحّ عليه الرهبان قائلين إن الأباطرة مسيحيون (حديثوا الإيمان) سمح بقراءة الرسائل حتى لا يستاء الأباطرة حاسبين أنه تعمّد عدم القراءة استخفافاً بهم . وكتب إليهم الرد موصياً إياهم أن يعبدوا السيد المسيح ، ناصحاً إياهم أن يهتموا بخلاصهم غير مهتمين كثيراً بأمور العالم بل بالحرى بالدينونة العتيدة ، متذكرين أن المسيح وحده هو الملك الحقيقى الأبدى ... وقد ابتهجوا بهذه الرسالة .

(ب) كتب أيضاً رسالة إلى بالاكيوس ، وهو موظف بالقصر الإمبراطورى « أذاق المسيحيين مرارة الاضطهاد خلال غيرته لحساب الأريوسيين الممقوتين . كان يضرب العذارى ويعرى الرهبان ويجلدهم بطريقة بربرية » . بعث إليه القديس أنطونيوس رسالة ، جاء فيها : « إنى أرى الغضب يحلّ عليك . توقف عن اضطهاد المسيحيين ، لئلا يحطمك الغضب القادم عليك سريعاً »[١٦] .

(جـ) بعث أيضاً سبع رسائل موجهة إلى أديرة مختلفة فى مصر ، مازالت توجد نسخ منها »[١٧] .

(د) رسالة صغيرة لكنها ممتعة مرسلة إلى الارشمندريت تادرس (ثيؤدور) ورهبانه، تقدم رؤيا خاصة بغفران الخطايا التى ترتكب بعد نوال المعمودية . كان الأسقف أمون المعاصر للقديس أثناسيوس يعيد ذكر هذه الرؤيا[١٨] .

٢ ــ عظاته : توجد مجموعة من ٢٠ عظة بعنوان : « Sermones ad filios suos monachos » وعظة باسم : « Sermo de vanitate mundi et resurrectione mortuorum » لازالت باللاتينية[١٩] . غير أن هذه العظات جميعها تبدو غير أصيلة . العظة الوحيدة التى للقديس أنطونيوس هى الواردة فى سيرة حياته .

تعاليمه وأقواله[٢٠]

أقتطف هنا بعض تعاليم وأقوال هذا الأب القديس ، عن طريقها يمكننا أن نتعرف على مفهوم الرهبنة من مؤسسها نفسه :

+ سأل أحدهم أبّا انطونيوس : « ماذا أفعل لأرضى اللّه ؟ » . أجابه الشيخ : اهتم بما أخبرك به : أينما ذهبت فليكن اللّه أمام عينيك ، وكل ما تفعله فليكن حسب شهادة الكتب المقدسة . وفى أى موضع تسكن لا تتركه سريعاً . احفظ هذه الأمور الثلاثة فتخلص .

+ سأل أبّا بامبو أبّا أنطونيوس : « ماذا يلزمنى أن أعمل ؟ » ، فأجابه الشيخ : «لاتتكل على برك ، ولا تضطرب على الماضى ، احفظ لسانك وبطنك ! » .

+ كما أن السمكة تموت إذا مكثت خارج الماء لفترة طويلة ، هكذا الرهبان متى تلكعوا خارج قلاليهم ، أو أمضوا أوقاتهم مع أناس من العالم ، فإنهم يفقدون قوة سلامهم الداخلى .

كما يليق بالسمكة أن ترجع إلى البحر ، هكذا يلزمنا أن نرجع إلى قلالينا لئلا إذا توانينا فى الخارج نفقد يقظتنا الداخلية .

+ من يبتغى أن يعيش فى التوحد يهرب من ثلاثة حروب : السمع والتكلم والنظر ، لكنه يبقى فى معركة مستمرة فى قلبه .

+ يرهق البعض أجسادهم بالنسك ، لكنهم بسبب عدم التمييز يبقون بعيداً جداً عن اللّه .

+ الطاعة مع النسك يعطيان البشر سلطاناً على الوحوش المفترسة .

+ من لم يختبر التجربة لايقدر أن يدخل ملكوت السموات ... بدون تجربة لايقدر أحد أن يخلص .

+ رأيت كل الفخاخ التى ينصبها العدو فى العالم فتنهدت وقلت : « من يقدر أن يفلت من هذه الفخاخ ؟ » فسمعت صوتاً يقول لى : « الاتضاع ! » .

+ الآن لا أخاف اللّه بل أحبه ، لأن المحبة تطرد الخوف خارجاً .

+ حياتنا وموتنا مرتبطان بقريبنا ، فإن فعلنا صلاحاً لأخينا إنما للّه نصنعه ، وإن أعثرناه إنما نخطىء فى حق المسيح .

+ ذهب الآباء القدامى إلى البرية ، وعندما صاروا كاملين صاروا أطباء وعادوا ليصلحوا غيرهم ، ولكن إن حدث أن ذهب واحد منا إلى البرية فإننا نقدم العلاج للآخرين قبل أن نُشفى نحن ، فيرتد ضعفنا إلينا وتكون شرورنا الأخيرة أشر من الأولى ، لهذا صارت لنا الوصية : « أيها الطبيب ، اشفِ نفسك أولاً » .

+ + +

٣ ـــ القديس باخوميوس

صبــــــاه

ولد باخوميوس فى صعيد مصر حوالى سنة ٢٩٠ م ، من أبوين وثنيين ، لكنه كان يكره الوثنية منذ صباه . وقد روى هذه القصة الغريبة : مرة ثار كاهن وثنى ثورة شديدة بدون سبب عند رؤيته لباخوميوس مع أبويه ، قادمين إلى الهيكل ، وصرخ قائلاً : « أقصوه بعيداً ، فإننى أشعر أنه عدو آلهتنا . أقصوه عن معابدنا واحتفالاتنا ! » .

قبل أن يصير مسيحياً بفترة طويلة كان ينشد الحياة الفاضلة ويشتهى الطهارة . وكما قال لتلاميذه : فى إحدى المرات طلب منه والده أن يحمل بعض الأطعمة للعاملين فى الحقل . وفى الطريق واجهته الشياطين فى صورة خيل ، محاولين قتله ، أما هو فنظر إلى السماء وبكى ، فهربوا لوقتهم . وإذ وصل متأخراً اضطر إلى المبيت هناك ؛ حاولت فتاة جميلة هى ابنة أحد العمال أن تغويه ، فانتهرها قائلاً : « لا أستطيع أن أرتكب هذه الخطية ؛ هل أنا كلب لأضاجع أختى ؟! » .

تحوله إلى المسيحية

أمر الإمبراطور الرومانى مكسميان والى مصر أن يرسل بعض الفرق العسكرية لإخماد ثورة فى أثيوبيا . أُختيرت الفرق ، وكانت تضم باخوميوس . وفى الطريق كان عليهم أن يتوقفوا عند مدينة لاتوبوليس (إسنا) بصعيد مصر ؛ وهناك تأثر باخوميوس بسمات سكانها الذين قدموا لهم طعاماً وشراباً . ولما سأل عن السبب قيل له إن المسيحيين يترفقون بالغرباء بل وبكل البشر ، حتى بالنسبة لأعدائهم . عندئذ سأل : « وما هو المسيحى ؟ » . قيل له : « إنهم أناس يحملون اسم المسيح ابن اللّه الوحيد ؛ وهم يمارسون الخير مع كل البشر مترجين ذاك الذى خلق السماء والأرض وأقامنا بشراً » . إذ سمع عن هذه النعمة فرح وامتلأ قلبه من مخافة اللّه . انسحب معتزلا فى خيمته وبسط يديه نحو السماء مصلياً : « اللهم ،

خالق السماء والأرض ، إن كنت هو اللّه الحقيقى أنقذنى من هذه المحنة ، فأخدمك بالحق كل أيام حياتى ، وأحّبَ كل البشر ، خادماً إياهم حسب وصاياك » .

قبل وصوله إلى أثيوبيا ، صدرت الأوامر بإطلاق سراح الجند لأن الثورة كانت قد أُخمدت . رجع باخوميوس إلى « شينوفسكيون » حيث نال سرّ المعمودية حوالى سنة ٣٠٧ م بعد أن أمضى بعض الوقت كموعوظ .

مع الأنبا بلامون المتوحد

أمضى باخوميوس ثلاث سنوات يتنقل من قرية إلى قرية ، يساعد المحتاجين ويعزى الحزانى ، مع أنه بقلبه الملتهب بمحبة اللّه كان يشتاق أن يكرس كل لحظة من حياته فى الصلوات والتسابيح . أحبه كثير من الفلاحين فتركوا قراهم وجاءوا ليعيشوا معه .

قرر باخوميوس أن يتتلمذ على يدىْ المتوحد أنبا بلامون ، الذى كان يعيش بقصر الصيّاد . رفض الأنبا بلامون أن يفتح باب مغارته لباخوميوس ، ناصحاً إياه ألا يلتحق بالرهبنة ، لكنه قبله بعد ذلك بترحاب إذ رأى فيه إصراره على السلوك فى هذا الطريق .

تدرب باخوميوس ــ تحت قيادة القديس بلامون ــ على حياة النسك الشديدة . نذكر أنه إذ غُلب باخوميوس من النوم ، قال له القديسِ بلامون مرةً : « استيقظ يا باخوميوس لئلا يجربك الشيطان ، فإن كثيرين قد ماتوا (روحياً) بسبب كثرة النوم » .

مؤسس نظام الشركة

مع أن باخوميوس كان متهللاً جداً بهذه الحياة الملائكية التى يعيشها تحت قيادة الأنبا بلامون المتوحد ، لكنه كان حزيناً لأن كثيرين من المؤمنين كانوا يتوقون إلى مثل هذه الحياة لكنهم كانوا عاجزين عن ممارستها . لم يكفَّ عن الصلاة من أجلهم . وفى ذات يوم ، بينما كان باخوميوس يجول يجمع حطباً ، جاء إلى قريةْ

مهجورة تسمى طبانسين على ضفاف النيل عند انحناء النيل شمال طيبه . هناك ظهر له ملاك اللّه وأرشده إلى الطريق الذى به يحقق ما يفكر فيه تجاه هؤلاء الذين يتوقون للحياة الرهبانية وهم عاجزون عن ممارستها . أعطاه الملاك قوانين هذه الجماعة الجديدة منقوشة على لوح نحاسى ، وهى قوانين يمكن للمسيحى العادى أن يحفظها .

وعند عودته إلى مغارته ، قصّ على أبيه الروحى بلامون ما حدث معه ، ففرح جداً ، قائلاً له إن هذه هى إرادة اللّه أن يقام دير بهذا النظام . حقاً إنه مما يثير الدهشة أن متوحداً شيخاً قضى كل أيام حياته (الرهبانية) فى ظل نظام التوحد ولم يسمع قبلاً عن هذا النظام الجديد ، لم يعارض تلميذه ، بل باركه وسنده فى إقامة بناء صغير ليعود ثانية إلى مسكنه ، معلناً له بإخلاص أنه كان يود أن يساعده فى قيام هذا النظام الجديد . لقد اعتذر القديس بلامون لتلميذه بأنه لايستطيع أن يعيش تحت نظام الشركة ، وسأله أن يتبادلا الزيارات مرة كل سنة حتى لحظة انتقاله من هذا العالم التى كانت قريبة جداً .

فى الحال جاء إليه بعض المتوحدين المقيمين فى المنطقة لزيارته ، وقد شيدوا قلالى لأنفسهم بالقرب منه . وفى سنة ٣١٥ م صار للقديس باخوميوس مجموعة قليلة من التلاميذ ، صاروا فيما بعد بضعة آلاف . وإذ ضاقت طبانسين بعدد الرهبان المتزايد ، وجد القديس باخوميوس نفسه ملتزماً بتأسيس جماعات أخرى بدأت بجماعة فى بابو التى لا تبعد كثيراً عن طبانسين .

قائد حكيم

١ ــ كان القديس باخوميوس أباً (رئيس دير) ناجحاً ، علّم تلاميذه بسلوكه أكثر مما علمهم بكلماته . يروى لنا بعض تلاميذه كيف جذبهم كمثال لهم ، قائلين : « اعتدنا أن نظن بأن جميع القديسين قد أقامهم اللّه هكذا مقدسين وهم بعد فى أحشاء أمهاتهم لا يتغيرون ... والآن نرى صلاح اللّه واضحاً فى أبينا ، إذ جاء من أبوين وثنيين وقد صار خائف اللّه جداً وكاملاً فى كل وصاياه ... لنمت مع هذا الرجل ، ولنعش معه ، فإنه يقودنا بحق نحو اللّه »[٣].

الآن أقدم بعض الأمثلة التى تظهر اهتمامه أن يعلِّم رهبانه بسلوكه :

(ا) مرة إذ كان ماشياً سأله أحد الرهبان ألا يحمل طعاماً له ، لأنه قد حمل هو ما يكفيهما هما الاثنين معاً . رفض الأب ذلك ، قائلا : « مكتوب إن الرب شابه إخوته فى كل شيء ، فكيف يمكننى أنا الضعيف أن أميز نفسى عن إخوتى ، ولا أحمل طعامى ؟! ... مكتوب أيضاً إن من أراد أن يكون عظيماً فليكن خادماً » .

(ب) إذ كان يجمع الحصاد فى جزيرة سأل تلميذه تادرس (ثيؤدور) أن يفرش له حصيرة ليرقد عليها ، إذ كان مريضاً جداً . حاول تادرس أن يضع حصيرة تحت الحصيرة لكن الأب رفض ، كما رفض أن يقبل من هذا التلميذ أن يأخذ بلحتين . فلما سأله تادرس عن سبب رفضه أجاب الأب إنه يخاف يوم الدينونة الأخير ، لئلا يكون هناك راهب مريض أكثر منه فيكون فى حاجة إلى الحصيرة والبلح . ختم الأب حديثه بأنه يلزمنا تقديم أنفسنا أمثلة للرهبان فى كل شيء .

(جـ) كان مريضاً وقُدمت إليه « شُربة » جيدة ، فصبّ عليها ماءً حتى أفسدها ، قائلاً : « أما تعرفون كيف تطهون الطعام ؟ » وبعد تناوله الطعام رشّ ماءً على قدمى تادرس . وإذ سُئل عن سبب تصرفاته هذه ، أجاب إنه أفسد الطعام لئلا يعتاد على الطعام الجيد عندما يكون مريضاً ، ورش الماء حتى إذا ما اتهم فى الدينونة الأخيرة بأنه ترك تلميذه يغسل له يديه يجيب : « وأنا أيضاً غسلت قدميه » .

٢ ــــ كرجل عسكرى سابق كان القديس باخوميوس حازماً ، وفى نفس الوقت كان مطيعاً للقوانين أكثر منه مصدراً لها . فقد حدث مرة أن طلب أحد الآباء ويدعى تاناسه من تادرس أن يستبدل ثياب القديس باخوميوس المتواضعة بثياب جديدة ، لأن الجو كان بارداً ولا يليق بقائدهم أن يلتقى بالضيوف بهذه الثياب . وفى الليل إذ لم يجد القديس باخوميوس ثوبه سأل عنه تادرس ، فأجاب: « خذ هذا الثوب الجديد » . ولما كرر الأب الطلب ثلاث مرات رافضاً أن يرتدى

الثوب الجديد بكى تادرس لأن أباه كان يرتعش برداً . العجيب فى الأمر أن القديس باخوميوس انتابه حزن شديد لأنه لم يطع تلميذه تادرس الذى كان مسئولاً عن الثياب . وقد بقى سبع سنوات يسأل اللّه المغفرة من أجل هذه المعصية .

٣ ـــ كان القديس باخوميوس أباً ناجحاً ، إذ فتح قلبه بالحب الصادق قبل أن يفتح ديره ، وكان يتعامل مع تلاميذه كأب وليس كرئيس أو قائد .

مرة صام القديس باخوميوس خمسين يوماً باكياً ومصلياً بلا انقطاع من أجل عشرة رهبان تدنست أفكارهم . توسل إليه أحد الأباء أن يطرد هؤلاء الرهبان خارجاً لأنه يموت بسببهم ، فأجاب القديس باخوميوس : « أيها الأب الشرير ، كيف تتجاسر وتطلب أن أطردهم خارجاً ، ألم تسمع عن موسى النبى الذى وضع نفسه من أجل شعبه العاصى ؟! ... » .

مرة أخرى عندما ادّعى بعض الرهبان أن القديس باخوميوس يتكلم من منطلق الكبرياء وحب المجد الباطل لم يلمهم قط ولا دافع عن نفسه لكنه كان بطول أناة يصوم ويصلى من أجلهم كى لا يتعثروا .

نقدم أيضاً مثلاً آخر عن طول أناته . مرة جاء إلى القديس باخوميوس أربعة رهبان وأب لدير باخومى ، كانوا منشغلين فى بناء بيت فى الدير الرئيسى . قام أحد هؤلاء الرهبان بإهانة القديس لأن أب ديره رفض أن يعطيه مركزاً معيناً . وبخ القديس باخوميوس هذا الأب لأنه لم يستشره قبل رفضه طلب هذا الراهب ، ثم بدأ يلاطف الراهب الثائر ، قائلاً له ، إنه سينال هذا المركز إن كان يريده . شعر الراهب بالأسف ، واعتذر للقديس قائلاً : « الآن عظمت جداً فى عينىّ يارجل اللّه أكثر مما سمعته عنك . لقد اختبرت كيف غلبت شرّى . الرب يعلم أنه لولا احتمالك لى أنا الخاطىء الجاهل وسط غضبى لتركت الدير وعدت إلى العالم . لقد هزمت شرى بصلاحك . مبارك أنت يا رجل اللّه ، لأنك ربحت نفسى بطول أناتك » .

أخيراً أشير إلى القصة التى اعتاد القديس باخوميوس أن يرويها لتلاميذه ، مظهراً لهم كيف تعلم أن يكون طويل الأناة ، وهى أنه بينما كان مرة يتحدث مع متوحد رأى شبحاً قبيحاً معلقاً على الباب ، فلم يعطِ الأمر اهتماماً . طلب القديس من تادرس أن يعدّ المائدة للمتوحد قبل تركه الدير ، وإذ لم تُعد المائدة للمتوحد ، رأى القديس راهباً آخر يسير بالقرب منهما ، فسأله أن يقوم باعدادها، وتكرر الأمر بالنسبة لراهب ثالث ، وأخيراً قام وأعد المائدة بنفسه . فلما غادر المتوحد الدير سأل القديس تلميذه تادرس : « لماذا تستخف بى ياتادرس ؟ » أجابه تادرس إنه سمعه يقول : « اذهب بعيداً فإننى أتحدث مع المتوحد » . سأل القديس الراهبين الآخرين عن سبب عدم اعدادهما المائدة فأجابا كما أجاب تادرس . عندئذ علم القديس أن الشبح القبيح الذى كان معلقاً على الباب هو شيطان الغضب التى يغيّر الحديث الذى ننطق به ليبث المعارك فيما بيننا .

القديس باخوميوس والكهنوت

كان يفضل القديس باخوميوس أن يدعو كهنة من الكنائس المجاورة لإقامة القداس الإلهى حتى لا يطلب أحد الرهبان السيامة . إن أراد كاهن أن يدخل الدير كراهب لم يكن يمارس الأعمال الكهنوتية ، إذ كان القديس باخوميوس حريصاً أن تحتفظ الرهبنة بسمة « الشعبية » (أى يكون الرهبان شعباً لا كهنة)، خشية أن تلتهب نيران محبة المجد الباطل وسط الرهبان . وفى رأيه : « بدء فكر حب السلطة هو السيامة »(٤) .

وجدير بالذكر أن القديس باخوميوس قد عمل مع رهبانه بغيرة من أجل بناء كنيسة فى قرية مهجورة . وقد اعتاد الرهبان جميعهم أن يذهبوا إلى هذه الكنيسة كل سبت وأحد ؛ وكان القديس باخوميوس يخدم هناك كقارىء .

تحدث القديس سرابيون أسقف دندرة (الذى كان يحب القديس باخوميوس) مع البابا أثناسيوس عند زيارته دير طبانسين بشأن سيامة القديس باخوميوس كاهناً عاماً على جميع أديرته ، وإذ هرب القديس ، قال البابا للرهبان : « سلموا

على أبيكم ، وقولوا له إنه إذ هرب من المجد الباطل الزمنى الذى يؤدى إلى الغيرة والحزن والحسد ، واختار المجد الأبدى مع المسيح ... فإننى لن أسيمه ، بل ولن أتحدث معه فى هذا الأمر ... إنما أرجو أن يتسنى لى رؤيته عند عودتى إن شاء الله ... » .

مع رجل رومانى

احتضنت الأديرة الباخومية رهباناً من أمم مختلفة : من ليبيين ونوبيين وسريان ورومانيين وكبادوكيين وأثيوبيين الخ ... ولكل أمة جناح خاص بها تحت قيادة شخص من ذات الجنسية يعمل مع أب الدير .

وذات مرة جاء رجل رومانى كان يتحدث اليونانية دون القبطية ، وقد طلب مشورة من القديس ، رافضاً تدخل أى مترجم بينهما ، إذ لم يرد أن يعرف أحد أسراره . استأذن منه القديس إلى حين ، حيث دخل قلابته وبكى أمام الرب ، قائلاً : « أيها الرب القدير ، إن كنتُ لا أفيد القادمين من وراء البحار بسبب جهلى لغاتهم ، فلماذا سمحت لهم بالحضور إلى هنا ؟! هل يمكننى أن أترجى من نعمتك الفائقة ومراحمك العظيمة أن تهبنى أيها الرب الصالح الرحوم أن أعرف لغاتهم لأتحدث معهم لنفع نفوسهم ! » . بعد هذه الصلاة التقى مع الرجل وتحدث معه باليونانية بطلاقة .

معجزاتـــــه

وُهب القديس باخوميوس نعمة شفاء المرضى وإخراج الأرواح الشريرة ، كما وُهب روح النبوة والتمتع برؤى ومعرفة أسرار الرهبان ورؤية نفوس الراقدين المنتقلة إلى الفردوس .

رحيـــــله

نجح القديس باخوميوس فى إقامة عدة أديرة تضم الآلاف من الرهبان ، وأيضاً دير للراهبات يضم ٤٠٠ راهبة تحت قيادة مريم أخته . نجح بعض الأساقفة والكهنة الذين حسدوه على هذا النجاح فى الاجتماع بكنيسة فى مدينة إسنا ، ودعوا القديس ليقتلوه ، لكن الله أنقذه .

فى نفس السنة انتشر مرض الطاعون فى صعيد مصر ، الذى حلّ بالأديرة أيضاً ، فمات بعض رؤساء الأديرة كما مات حوالى مئة راهب . كان القديس يتنقل بين الأديرة حتى أُصيب هو نفسه بالمرض . بعد أربعين يوماً من مرضه دعى كل آباء الأديرة (abbots) المسئولين وسألهم أن يتمثلوا به ، وأن يكونوا متيقظين ، وأن يترفقوا بكل أحد ، وأن يكونوا طويلى الأناة متواضعين عاملين بلا انقطاع من أجل خلاص كل نفس . وعندئذ رحل إلى الرب .

النظـــام البـــاخومى

يشير بالاديوس إلى الستة قوانين المنحوتة على اللوح النحاسِى ، الذى قدمه ملاك الله للقديس[٥] . ويقول سوزومين إن اللوح كان لايزال محفوظاً[٦] .

نستطيع أن نلخص هذه القوانين فى النقاط التالية :

★ اسمح لكل شخص أن يأكل ويشرب حسب قوته ؛ وعلى قدر قوة الآكلين تحدد لهم أعمالهم . لا تمنع أحداً من الصوم أو الأكل . على أى الأحوال حدد الأعمال التى تحتاج إلى مجهود للأقوياء ، أما الضعفاء والنساك فقدم لهم الأعمال التى يمكن للضعفاء القيام بها .

★ أقم عدة قلالٍ فى مبنى واحد ؟ كل ثلاثة رهبان يسكنون قلاية[٧] ؟ وليتناول جميع الرهبان معاً فى مبنى واحد .

عند النوم لا يرقدون بالكامل إنما يضطجعون وهم جلوس على كراسى مريحة بسيطة ويتغطون « ببطانية » .

★ ليرتدوا فى الليل ثوباً بلا أكمام ومنطقة ، وليكن لكل واحدٍ منهم عباءة من جلد الماعز ، لا يأكل أحد إلا وهو مرتديها . وعندما يشتركون فى الصلاة والتناول أيام السبوت والآحاد فليحلوا مناطقهم ويلقوا العباءة الجلدية وليدخلوا بالقلنسوة وحدها[٨] .

★ تقسم الجماعة إلى ٢٤ قسماً ، كل قسم يميز بأحد الحروف اليونانية ، فيكون لكل قسم حرفاً مناسباً لسلوكه وعاداته . فالإسم « يوتا » يُلقب به البسطاء ،

والقسم « زيتا»أو « إكسى » للملتوين ، وأسماء الحروف الأخرى تُختار حسب الغرض بما يناسب شكل الحرف(٩) .

★ إذا جاء شخص غريب من دير آخر له نظام مغاير فلا يأكل معهم ولا يشرب، ولا يدخل حتى الدير إلا إذا كان قد جاء فى رحلة حقيقية (أى قادم لعمل جاد) .

وفى اختصار ، يمكن القول بأن الفكرة الرئيسية للنظام الباخومى هى تأسيس نظام معتدل يمكن للكل أن يلتزم به ، مع ترك الباب مفتوحاً للكل ، لتشجيعهم على ممارسة ما هو فوق هذا الحد الأدنى ، وذلك حسب حزمه الداخلى وقدرته وشجاعته وغيرته(١٠) . فإنه عندما اعترض القديس باخوميوس على الملاك قائلاً بأن الصلوات قليلة ، أجابه الملاك : « لقد أعطيت هذا النظام لكى تتيقن مقدماً أنه يمكن حتى لأصحاب القامات الصغيرة روحياً أن يحفظوه دون حزن . أما بالنسبة للكاملين فهم ليسوا فى حاجة إلى تقنين ، إذ هم يسلمون أنفسهم بالكامل لحياة التأمل فى الله ، بجهادهم الشخصى فى قلاليهم . لكننى أقدم تقنيناً لأن كثيرين ليس لهم العقل الفطن (روحياً) ، هؤلاء كعبيد يتممون الواجبات التى يلتزمون بها ليصيروا فى حرية (يمكنهم أن يجاهدوا أكثر أو يكتفوا بهذا القدر)(١١) .

قوانين باخومية أخرى

١ ــ لا يقبل أحد فى أديرته متى كان هارباً من أية مسئولية أو من العدالة . يظل طالب الرهبنة تحت الاختبار لمدة ما بين سنة وثلاث سنوات ، خلالها يلزمه أن يؤكد جدية نيته حتى يُمكن قبوله . فى هذه الفترة ، يطلب منه أن يتعلم القراءة والكتابة وحفظ عشرين مزموراً ورسالتين من العهد الجديد عن ظهر قلب. لم يكن للأمية موضع فى الشركة الباخومية .

٢ ــ يُقدم الطعام مرتين يومياً ، فى الظهيرة وعند المساء . عندما يأكلون يغطون رؤوسهم بالقلنسوة حتى لا ينظر أحد أخاه وهو يمضغ الطعام . لم يكن يُسمح للراهب بالحديث أثناء الطعام ولا أن يحرك عينيه بعيداً عن طبقه أو عن

المائدة . قبل البدء فى الأكل يرنم مزمور ثم تتلى صلاة ، ويقوم أحد الرهبان بقراءة الكتاب المقدس بينما يأكل الآخرون معاً .

٣ ـــ كان العمل إلزامياً حتى بالنسبة لرؤساء (لآباء) الأديرة (أبا Abbott)، وذلك لهدف مزدوج ، أى لتجنب البطالة (الكسل) التى هى أصل كل إحباط ، وللمساهمة فى احتياجات الدير . كان القول المشهور ضد الإخوة الكسالى : « إن لم يعمل الراهب فلا يأكل » .

يقول القديس جيروم : « فى مصر يوجد قانون للأديرة وهو عدم قبول غير الراغبين فى العمل ، إذ ينظرون إلى العمل كأمر ضرورى ليس فقط لإشباع حاجة الجسد وإنما أيضاً لخلاص النفس »[١٢] .

كانوا يعملون إما فى صمت أو وهم يسبحون المزامير .

كانت الأديرة الباخومية تمثل وحدات ذات اكتفاء ذاتى بخبازيها وطباخيها ونساجيها مع الخياطين والفلاحين والطحانين والبنائين والنجارين والحدادين والميكانيكيين والدارسين ونسّاخ المخطوطات[١٣] ...

٤ ـــ كانوا يصلون معاً ثلاث مرات يومياً : فى الصباح وعند الظهيرة وفى المساء . ويلتزم الكل بالاشتراك فى رفع بخور عشية والقداس الإلهى فى أيام السبوت والآحاد . هذا بجانب التزام كل راهب بصلاته الخاصة فى قلايته حسب إرشاد أب اعترافه .

٥ ـــ يعيش الرهبان فى حياة شركة ، بدون ملكية خاصة ، ويتحاشون التعامل مع النساء .

٦ ـــ ركز القديس باخوميوس على الطاعة كأمر أساسى فى حياة الشركة . كان يحذر من اعتماد المتوحدين على مشورتهم الذاتية واستقلالهم التشخصى لئلا يفقدوا جانب الخضوع فى اتضاع .

٧ ـــ لكل دير ادارته المحلية ، يخضع لأب محلى ، له شخص مساعد ، ولديه المسئول عن مخازن الدير (ربيته) ومسئول عن المكتبة ...

لكل جماعة أب منهم ، مثل النساخ والخبازين والعاملين فى الحقول والمسئولين عن الجمال والنساجين ... وأيضاً للأجانب أب عليهم من بنى جنسهم ...

كل ثلاثة أو أربعة أديرة متقاربة يتحدون معاً فى « أسرة واحدة » لهم أب يُختار من بين آباء (رؤساء) هذه الأديرة . وكان الرهبان يلتقون كل فترة معاً لمناقشة مشاكلهم المحلية . هذه الأسرة المكونة من ثلاثة أو أربعة أديرة تخضع لقائد عام لها (غالباً ما يكون أب الدير الرئيسى من بين هذه الأديرة) .

الإدارة الرئيسية (لجميع الأديرة) مركزها الدير الرئيسى بطبانسين ، تحولت بعد ذلك إلى دير بافو .

الإشراف على الأديرة الأخرى يتحقق بصورتين :

(ا) زيارة القائد العام للأديرة .

(ب) انعقاد اجتماعين عامين كل سنة فى الدير الرئيسى ؛ الأول بعد عيد القيامة للاحتفال بعيد الصعود ، والثانى فى ٢٢ مسرى حيث يقدم الآباء (رؤساء الأديرة) حساباتهم عن أديرتهم للقائد العام لكل الأديرة ، كما تعلن أسماء الآباء (الرؤساء) الجدد ، ثم — فى مشهد مؤثر للغاية — يُعطى الصفح العام عن الخطايا التى يمكن أن يكون قد ارتكبها جميع الإخوة .

٨ — يخضع المرضى من الرهبان وأيضاً الزائرون لأحكام خاصة تناسب ظروفهم .

٩ — كان على الرهبان — بوجه عام — أن يتجنبوا الاحتكاك بالعالم ، وإن كان قد سمح بزيارة الوالدين فى مرضهم ، أو حضور صلوات الجنازات على أن يكون الراهب فى صحبة زميل له ، لكنهم يلتزمون بألا يعودوا إلى الدير حاملين معهم أية أخبار من العالم . كان أيضاً يسمح لبعض الرهبان ببيع منتجات الدير فى المدينة وأحيانا يذهبون بالسفينة إلى الإسكندرية .

أثر النظام الباخومى فى العالم(١٤)

كان النظام الباخومى يعتبر نموذجاً للنظم الديرية فى الشرق والغرب . تُرجمت

أصول هذا النظام عن القبطية إلى اليونانية ، وقد قام القديس جيروم بترجمتها إلى اللاتينية عام ٤٠٤ ـــ ٤٠٥ م . استخدمها أيضا القديس باسيليوس الكبير ، كما كان لها أثرها على النظام « Regula Vigilli » فى بلاد الغال فى القرن الخامس ، و « Regula Tarnatensis » فى القرن السادس أو السابع . هذا وقد عَرَف هذه الأنظمة كل من بندكت وقيصريوس أسقف آرل .

لعبت هذه الأنظمة دوراً كبيراً فى نشر نظام الشركة فى أثيوبيا وروما وفلسطين وآسيا الصغرى وبلاد الغال .

+ + +

٤ ــ القديس آمون[١]

كان القديس آمون معاصراً للقديس أنطونيوس الكبير ، ويُعتبر المؤسس الثالث للرهبنة القبطية مع القديسين أنطونيوس وباخوميوس . فقد أسس ديراً فى قرية « نتريا » ، حيث عاش آلاف من تلاميذه تحت نظام الجماعات الذى يقترب من نظام الشركة . وقد عبر مئات منهم إلى منطقة القلالى ليعيشوا كمتوحدين بعد تدربهم فى هذا الدير فترة من الوقت . بمعنى آخر ، تبنى هذا القديس نظامين من الرهبنة : نظام الجماعات (المقترب من الشركة) ، ونظام الوحدة . ويُعتبر هذا علامة مميزة له تقابل الفكر الذى لدى القديسين باخوميوس وباسيليوس حيث يعتبران « الشركة » تكريساً مدى الحياة (إلى حد ما) .

زواجــــــه

وُلد آمون حوالى سنة ٢٧٥ م ، ولما بلغ حوالى الثانية والعشرين من عمره (حوالى سنة ٢٩٧ م) ألزمه عمه أن يتزوج ، وإذ لم يستطع المقاومة رأى من الأفضل له أن يُكلل ويدخل الحجرة الزوجية متقبلاً الطقوس الخاصة بالزوجية . ولما انصرف الضيوف أخذ كتاب « الرسائل » ، وصار يقرأ لزوجته من رسالة القديس بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ، موضحاً لها نصائح الرسول للمتزوجين (١ كو ٧ : ١٠ الخ) . حدثها عن منافع الطهارة ، ووصف لها الحرية والنقاوة اللتين تتبعان حياة العفة ، مؤكداً لها أن البتولية تقرِّب الإنسان من الله . فاقتنعت بنعمة الله ، وقالت له : « إننى مقتنعة يا سيدى ، فما هى طلبتك؟! أجابها : « إننى أرى أن يعيش كل منا على انفراد فى المستقبل » . وإذ لم تحتمل هذا الطلب ، قالت له : « لنسكن فى بيت واحد ، وليكن لكل منا فراشه المستقل » .

بلغا هذا الحل فانطلقا إلى نتريا ، وعاشا هناك كناسكين ، بالرغم من اختلاف الجنس[٢] . وبعد ١٨ سنة (حوالى سنة ٣١٥ م) عرفت زوجته سمو

الحياة الرهبانية ، فطلبت من رجلها أن ينفردا لنمو حياتهما الروحية ، قائلة له : « لا يليق بك وأنت تمارس الطهارة أن تتطلع إلى إمرأة تشاركك نفس المسكن ... »[٣] . هذا الاتفاق أرضى الاثنين ، فتركها فى الكوخ بحقله الخاص بالبلسم وخرج ليستقر فى الداخل فى جبل نتريا حيث بنى لنفسه قلايتين بقباب، وكان يفتقد زوجته مرتين سنوياً . وكذا التف حوله تلاميذ كثيرون تحت قيادته .

نتريـــــا[٤]

استقر آمون فى الصحراء الغربية بعيداً قليلاً عن شمال الدلتا ، بالقرب من قرية البرنوج[٥] أو نتريا[٦] التى تبعد حوالى تسعة أميال جنوب غرب مدينة دمنهور (هرموبوليس بارفا) .

كان موقع نتريا الجغرافى غامضاً تماماً حتى أوضحه إيفلين هوايت فى كتاب : « تاريخ أديرة نتريا والإسقيط » الذى نُشر عام ١٩٣٢ م .

١ ــ ظن بعض الدارسين أن نتريا هى بعينها « وادى النطرون » ، وذلك بسبب تشابه الاسمين . فى الحقيقة توجد بحيرات نطرون ملاصقة للبرنوج أو نتريا، أُستغلت تجارياً فى أوقات معينة ، وعلى بعد ٤٠ ميلاً من الجنوب نحو البرية توجد أيضاً مستودعات نطرون بكميات هائلة فى المنخفض الطويل الذى يعرف اليوم بوادى النطرون .

٢ ــ كانت نتريا هى مدخل البرية ؛ وكانت قرية بها معبد وثنى كما يظهر من سيرة القديس مقاريوس الكبير . أما وادى النطرون فهو برية الإسقيط .

٣ ــ لم تعد هناك أديرة فى البرنوج أو بالقرب منها ، وإنما توجد الأربعة أديرة الشهيرة فى وادى النطرون .

٤ ــ تستخدم كلمة « إسقيط » أحياناً فى بعض النصوص لتضم نتريا أيضاً ، لكن لا تستخدم كلمة « نتريا » بمعنى شامل لتضم الإسقيط .

القلالى « كيليا » أو « سيليا »

عندما زار القديس أنطونيوس القديس آمون ، أخبره الأخير بأن عدد الرهبان قد تزايد جداً ، طالباً منه المشورة بالنسبة لراغبى الوحدة الأكثر كمالاً . وكان إذ تناولا وجبة الساعة التاسعة المعتادة سارا معا فى الصحراء ببطء ، وعند الغروب توقف القديس أنطونيوس ، وقال : « لنُصلِّ ، ونرفع صليباً هنا ؛ وعلى راغبى بناء قلالى لهم أن يتمموا ذلك فى هذا الموضع . بهذا يمكن للراغبين فى زيارتهم (من منطقة نتريا) أن يتناولوا قليل طعام فى التاسعة فى نتريا ثم ينطلقون إلى هنا (منطقة القلالى) ويكون نفس الأمر بالنسبة للقاطنين هنا (متى أرادوا زيارة نتريا) ، بهذا لا يحدث اضطراب (إذ يصلون مع الغروب قبل الظلام) خلال الزيارات المتبادلة » .

هكذا نشأ المركز الثانى للمقيمين فى نتريا ، خلال تأسيس منطقة « القلالى » أو « كيليا » ، حيث قطن بها ستمائة متوحد لهم كاهنهم وكنيستهم ، وإن كانوا قد اعتمدوا فى طعامهم على نتريا .

وصف بالاديوس

قدم لنا بالاديوس وصفاً مختصراً لنظام القديس أمون فى نتريا وفى القلالى كشاهد عيان ، إذ قال : [يعيش على الجبل خمسة آلاف رجل بطرق حياة متنوعة ، كل يعيش حسب قدراته واشتياقاته ، فيسمح للشخص أن يعيش منفرداً أو فى شركة مع آخر أو مع آخرين . ويوجد سبعة خبازين فى الجبل يخدمون احتياجات هؤلاء الرجال واحتياجات المتوحدين فى البرية العظيمة ، البالغين ستمائة متوحد ... وقد تغلغلت أنا إلى أعماق البرية الداخلية . وفى جبل نتريا هذا توجد كنيسة عظيمة ، بجوارها ثلاث نخلات ، معلق على كل نخلة سوط ، واحد يُضرب به من يعصى من المتوحدين ، والآخر للصوص إن عبروا بالموضع ، والثالث للضيوف ؛ فكل من يعصى يُحكم عليه بعدد معين من ضربات السوط ثم يطلق سراحه . وبجوار الكنيسة يوجد بيت ضيافة ، يستقبل الضيوف القادمين حتى يرحلوا بكامل حريتهم . ويُسمح لهم أن يقضوا أسبوعاً بلا عمل ، أما بعد ذلك

فيلتزمون بالعمل إما فى الحديقة (الحقل) أو المخبز أو المطبخ . إن كان الضيف شخصاً هاماً يعطونه كتاباً ولا يسمح له بالحديث مع أحد قبل الساعة السادسة . يعيش فى هذا الجبل أطباء وصانعو حلوى يصنعون خمراً (أباركة) للبيع . الكل يعملون بأيديهم فى مصنع الكتان[٧] ، ليعيشوا فى اكتفاء ذاتى . فى وقت الساعة التاسعة ، يمكنك أن تقف لتسمع ألحان التسبيح تصدر من كل مسكن ، حتى ليعتقد الإنسان أنه قد ارتفع إلى العالم العلوى ، إلى الفردوس . يجتمعون فى الكنيسة أيام السبوت والآحاد فقط . ويوجد ثمانية كهنة يخدمون الكنيسة[٨] ، وإذ يوجد الكاهن المتقدم لا يقدس أحد غيره ، ولا يعظ أو يتقبل اعترافات وإنما يجلس الكل معه صامتين »[٩] .

شهرة القديس آمون

فى حوار ودى لطيف بين القديسين آمون وأنطونيوس ، قال الأول : « لقد مارست أتعاباً أكثر منك فلماذا ارتفع اسمك بين الناس أكثر منى ؟ » أجابه القديس أنطونيوس : « لأننى أحب اللّه أكثر منك » .

فعلى الرغم من أن آلافاً من الرهبان سكنوا نتريا تحت قيادة القديس آمون ، فإنه لم يحظ عالميا بنفس الشهرة التى نالها القديس أنطونيوس . ولعل مرجع ذلك أن نظام رهبنة القديس آمون لم يأت بجديد للعالم ــ وإن كان جذاباً بحق . فأنطونيوس بسكناه وحيداً سنوات طويلة فى البرية الداخلية يصارع الشياطين أذهل العالم كله عندما اكتشف أمره ، وباخوميوس أيضاً كان له أثره فى العالم بنظام الشركة الذى وضعه . أما آمون فلم يُقدم جديداً إنما جمع نظامه بين التوحد والشركة .

حيـــــاته

لا تقدم لنا الكتب والمخطوطات الكنسية شيئاً عن حياة القديس آمون التفصيلية وصراعاته ، كما حدث بالنسبة لغيره من مؤسسى النظم الرهبانية ، ربما بسبب ما اتسم به من حياء .

يقدم لنا بالاديوس هذا الحديث المختصر[١٠] : [أخبرنا الطوباوى أثناسيوس الأسقف فى كتابه « حياة أنطونيوس » قصة عجيبة عن هذا الرجل[١١] ، كيف جاء إلى شاطىء القناة « لوقيوس » مع تلميذه تادرس ، وإذ خجل من رفع ثيابه لئلا يراه تلميذه عارياً ، وُجد على الضفة الأخرى من القناة ، إذ حملته ملائكة دون استخدام «معدّية». هكذا كانت حياة الطوباوى آمون، وهكذا كان كماله، إذ رأى الطوباوى أنطونيوس نفسه تحملها الملائكة إلى السماء . واننى قد عبرت بنفسى هذه القناة مرة بواسطة « معدّية » ، ولكننى كنت فى خوف ، إذ هى قناة تنبع من النيل العظيم] .

تعاليمه وسلوكه

١ ــ كان فكر القديس آمون مستغرقا بالكامل فى ملكوت السموات ، لذا كان حريصا ألا يخسر لحظة واحدة فى مناقشات أرضية . قيل إنه عندما كان لديه شيء للبيع ، يقول الثمن مرة واحدة ويصمت ، ليتقبل أى مبلغ فى سلام كامل . وأيضا متى أراد شراء شيء ما يعطى البائع الثمن الذى يطلبه وهو صامت لا ينطق بكلمة[١٢] .

٢ ــ كان غيوراً على خلاص الناس بالتوبة الصادقة . يروى سوزومين أن والدين شريرين جاءا إلى القديس أمون ومعهما ابنهما الذى كان قد عقره كلب مسعور ، وقد قارب الموت ، وكانا يسألانه بحزن شديد لأجل شفائه . قال لهما : « لا يحتاج ابنكما إلى شفائى ، لكنه يُشفى فى الحال إن كنتم تردون الثور المسروق إلى أصحابه » . وكما تنبأ لهما ، شُفى الولد عندما ردّا الثور[١٣] .

٣ ــ تقدم لنا « الأبوفثجماتا باتريم » (أقوال الآباء) القصة التالية : جاء أخ إلى الإسقيط ليرى أبّا آمون ويقول له : « أرسلنى أبى لمهمة ، لكننى أخشى من الزنا » . أجابه الشيخ : « فى ساعة حلول التجربة عليك قل : يا إله كل فضيلة ، خلصنى من التجربة بصلوات أبى » . وهكذا إذ أغلقت فتاة

صغيرة عليه بدأ يصرخ بكل قوته : « يا إله أبى خلصنى » ، وفى الحال وجد نفسه فى الطريق إلى الإسقيط[١٤] .

+ + +

٥ ــ القديس مقاريوس

القديس مقاريوس (حوالى سنة ٣٠٠ ــ ٣٩٠ م) ، هو مؤسس الرهبنة فى برية الاسقيط ، بدأ حياته النسكية فى قرية ، وكان يتنقل بين القرى هرباً من سيامته كاهناً . اُتهم باطلاً بالاعتداء على فتاة ، وإذ ظهرت براءته هرب إلى الاسقيط .

تأثر جداً بالعظيم أنبا أنطونيوس ، وقد زاره على الأقل مرتين .

دعاه المؤرخ سقراط « الإناء المختار »[١] ، بينما قال عنه بالاديوس : « تأهل لنوال نعمة الإفراز هكذا حتى دُعى « الشيخ الشاب »[٢] . وقد نال موهبة شفاء المرضى ومعرفة أسرار المستقبل .

نفاه الأسقف الأريوسى لوقيوس إلى جزيرة فى النيل بناء على منشور صدر من الإمبراطور فالنز خوله هذا الحق . وكان القديس فى سن متأخرة ، وقد تنيح بعد عودته إلى البرية بوقت قصير .

فيما يلى أقدّم ــ فى شيء من التفصيل ــ حياة القديس وشخصيته .

زواجـــــه

أقيم مقاريوس الشاب المحبوب من الكهنة ومن شعب القرية قارئاً « أغنسطس» وألزمه والداه أن يتزوج على رجاء سيامته كاهناً . بعد انتهاء مراسيم الزواج شعر بمرض فطلب من والداه أن يصاحب الجمالين الذين اعتادوا إحضار النطرون من وادى النطرون ...

إذ رأى الله صدق رغبته فى الطهارة والنسك أرسل اليه شاروباً ظهر له فى رؤيا وهو نائم بوادى النطرون ، قال له : « الله يقول لك إنه منحك أنت وأولادك (الروحيين) هذا الجبل كله لتكرس كل وقتك للعبادة . كثير من القادة يأتون

إلى هذه البرية . اسهر وتذكر ما أقوله لك : إن سلكت بكمال أظهر لك وأعلن لك كلمات الله ... » وقد قيل إن الشاروب صحبه كل حياته تقريباً .

عند رجوعه إلى قريته وجد زوجته البتول قد أصيبت بحمى ورقدت .

القديس مقاريوس المتوحد

سكن القديس مقاريوس فى كوخ بقرية يمارس الحياة النسكية حوالى عشر سنوات وذلك بمشورة أحد النساك . ولما بلغ الأربعين من عمره سيم كاهناً بغير إرادته[٣]. بعد فترة صغيرة ذهب إلى قرية أخرى إذ حسب نفسه غير أهل للكهنوت ولتكريم شعبه له . وبعض المخطوطات تذكر أنه لم ينل السيامة إلا بعد ذهابه إلى الاسقيط .

مرة أخرى ترك هذه القرية وهرب إلى الاسقيط ، وقد روى لنا بنفسه سبب تركه لهـــا :

[حدث أن عذراء فى القرية سقطت فى زنى تحت ثقل التجربة وحملت ، فلما أُشهرت سُئلت عمن فعل معها هذا ، فقالت المتوحد ! . وسرعان ما خرجوا علىّ وأخذونى باستهزاء مريع إلى القرية ، وعلقوا فى عنقى قدوراً قذرة جداً وآذان جرار مسودة مكسورة . وشهّروا بى فى كل شارع من شوارع القرية وهم يضربوننى ، قائلين : إن هذا الراهب أفسد عفة ابنتنا البتول ، اخزوه ، اخزوه . وهكذا ضربونى ضرباً مبرحاً قربت بسببه من الموت إلى أن جاءنى أحد الشيوخ ، فقال لهم : إلى متى تضربون هذا الراهب الغريب ؟! » . وكان يتبعنى ذاك الذى كان يخدمنى وهو فى خزى ، إذ أغرقوه هو أيضا بالشتائم ، وكانوا يقولون له : « هذا هو المتوحد الذى شهدت له بالفضل ، أنظر ماذا فعل . وأخيراً قال والدها : « لا تطلقوه حتى يأتينا بضامن أنه يتعهد بأمرها » . تحدثتُ مع ذاك الذى يخدمنى فقام بالضمان عنى . إذ ذهبت إلى قلايتى سلمته كل السلال التى لدىّ ، وقلت له : « بعها وأعط زوجتى لتأكل » . ثم قلت لنفسى ، « كدّ يا مقارة فها قد صارت لك امرأة تعولها » . وكنت أعمل ليلاً ونهاراً وأرسل لها عملى . وإذ حان موعد الولادة مكثت أياماً كثيرة وهى معذبة وما استطاعت أن تلد ، فقالوا لها :

« ما هو هذا ؟ » . قالت : « إننى أعرف الأمر ، فإن ما أصابنى كان بسبب أنى ظلمت المتوحد ، واتهمته وهو برىء ، لأنه ما فعل بى شيئاً قط ، لكن فلانا الشاب هو الذى فعل ذلك » .

جاء إلىّ خادمىَ مسروراً ، وقال لى : « ما استطاعت البتول أن تلد حتى قالت : إن المتوحد لا ذنب له فى هذا الأمر مطلقاً ، وقد كنت كاذبة فى اتهامى له . وها هم أهل القرية كلهم عازمون على الحضور إليك ليسألوك الصفح » . فلما سمعت أنا هذا الكلام خشيت أن يقلقنى الناس ، فأسرعت هارباً إلى هنا ، إلى الاسقيط][٤] .

أديرة الاسقيط

أغلب الظن أن القديس مقاريوس استقر أصلاً فى المنطقة التى حول دير البراموس الحالى (دير الإخوة الرومان)[٥] ، فى الحدود الغربية للوادى[٦] . وإذ تزايد عدد الرهبان ، يبدو أنه تحرك من ذلك المكان إلى أعلى بجانب الحدود الشرقية قرب الدير الذى يحمل اسمه الآن .

فى أيام يوحنا كاسيان ، وجدت أربعة تجمعات فى الاسقيط[٧] ، الثالث منها فى موقع ديرى السريان والأنبا بيشوى الحاليين ، والرابع فى موقع دير القديس يحنس القصير ، وقد صار مهجوراً لقرون طويلة ، وإن كان موقعه معروفا .

توحـــــده

كان القديس مقاريوس يتوق إلى حياة الوحدة فاختار الاسقيط بسبب بعده عن المدن ، فقد آمن أن البرية هى أنسب موقع للرهبنة ، وتتضح هذه الفكرة من حواره مع أبّا بامبو والإخوة الذين كانوا فى جبل نتريا . فإنه إذ سيطرت عليه فكرة الدخول إلى البرية الداخلية ورؤيتها ، حارب هذا الفكر لمدة خمس سنوات ثم ذهب ، فوجد واحة بها بحيرة ماء وفى وسطها جزيرة ، وكانت حيوانات البرية تأتى لتشرب منها . وجد بين هذه الحيوانات رجلين عاريين ، فجزع منهما لظنه أنهما روحان . لكنهما إذ نظراه مرتعباً خاطباه ، قائلين : « لا تجزع ، فإننا بشريان مثلك » . قال لهما : « من أين أنتما ؟ وكيف جئتما إلى هذه البرية ؟ » . أجابا :

« نحن كنا فى دير وقد اتفقنا على أن نبقى هنا منذ أربعين عاماً . أحدنا مصرى والآخر ليبى ... عندئذ سألهما : « كيف أصير راهباً ؟ . أجاباه : « إن لم يزهد الإنسان كل أمور العالم فلن يستطيع أن يصير راهباً » . قال : « إنى ضعيف فما أستطيع أن أكون مثلكما » . عندئذ قالا له : « إن كنت لا تقدر أن تفعل ما نفعله نحن فاجلس فى قلايتك وابك على خطاياك » . سألهما : « أما تبردان إن صار شتاء ؟ وإن صار حرا أما يحترق جسداكما ؟ » . أجاباه : « اللّه هو الذى دبّر لنا هذه الحياة ، فلا نجد فى الشتاء برداً ولا يضرنا حرّ الصيف »[٨] .

وقد ختم هذه القصة ، قائلاً : « لذلك قلت لكم إنى لم أصر بعد راهباً ، بل رأيت رهباناً ... فاغفروا لى يا إخوتى » .

أكّد القديس مقاريوس أن برية الاسقيط تفقد قيمتها الرهبانية عندما تدخل إليها المدنية . « عندما ترون القلالى اتجهت نحو الريف ، اعرفوا أن نهاية الاسقيط قد قربت ؛ وعندما ترون أشجاراً فاعلموا أنها على الأبواب ، وإذا رأيتم أطفالاً احملوا ثيابكم الجلدية واهربوا » .

حتى فى برية الاسقيط اعتاد القديس مقاريوس أن يهرب من ازدحام الشعب . ويخبرنا بالاديوس أنه حفر سرداباً تحت الأرض يمتد من قلايته إلى حوالى نصف ميل وينتهى بمغارة صغيرة . فإذا ما جاءت إليه جموع كثيرة ، يترك قلايته سراً إلى المغارة فلا يجده أحد . وقد أخبرنا أحد تلاميذه الغيورين أنه اعتاد أن يتلو ٢٤ صلاة فى طريقه إلى المغارة ، ٢٤ صلاة فى العودة[٩] .

عندما سأله أبّا إشعياء : « قل كلمة حياة » ، أجابه : « اهرب من الناس » . فقال أبّا إشعياء : « ما معنى الهروب بالنسبة لى » . أجابه الشيخ : « أن تجلس فى قلايتك وتبكى على خطاياك » .

سأله أبا « ايوا Aio » : « قل لى كلمة حياة » . قال له أبّا مقاريوس : « اهرب من الناس ، وامكث فى قلايتك ، وابك على خطاياك ، لا تتلذذ بالحديث مع الناس فتخلص » . مرة أخرى قدم مشورة للإخوة بالاسقيط عندما انفض الاجتماع ، قائلاً : « اهربوا يا إخوتى ! » سأله أحدهم : « كيف نهرب أكثر من مجيئنا إلى البرية ؟ فوضع يده على فمه وقال : « من هذا فروا » .

عندما اشتكى أبا موسى أن إخوة كثيرين يفتقدونه ، قائلاً له : « أود أن أعيش فى صلاةً هادئة لكن الإخوة لا يتركونني » ، أجابه : « أرى أنك إنسان حساس لا تقدر أن تبعد الإخوة عنك . حسناً ، فإنك إن أردت أن تعيش فى سلام ، اذهب إلى البرية الداخلية إلى بترا ، هناك تجد السلام » ، وهكذا وجد السلام .

رجل الحب

اكتشف القديس مقاريوس أن الفهم الحقيقى للتوحد ليس هو مجرد العزلة عن البشر ، بل هو الرغبة الصادقة للاتحاد مع اللّه محب البشر . المتوحد الحقيقى يهرب بالجسد عن البشر لكنه عملياً يحب كل إنسان .

استطاع القديس مقاريوس القائد الناجح لمئات النساك أن يقيم جماعة محبة خلال سلوكه كمثال لهم وبكلماته . جاء فى كتاب « تاريخ رهبان مصر » الذى ترجمه روفينوس الذى من أكويلا قصة غريبة : [قيل إن أخاً جاء إلى القديس مقاريوس بعنقود عنب ، لكن ذاك ـــ الذى من أجل المحبة لا يفكر فى ما هو لنفسه بل فيما هو للآخرين ـــ قدم العنقود إلى أخ آخر يبدو أنه هزيل ، فشكر الشخص المريض اللّه من أجل حنان أخيه ، لكن هذا بدوره إذ كان يفكر فى أخيه أكثر مما هو لنفسه قدم العقود لأخ آخر ، والآخر قدمه لغيره وهكذا حُمل عنقود العنب إلى كل القلالى المنتشرة فى البرية ، ولم يعرف أحد من الذى أرسله أولاً حتى جاء فى النهاية إلى ذات الشخص الذى قبله أولاً . عندئذ شكر القديس مقاريوس اللّه أنه رأى فى الإخوة نسكاً كهذا وترفقاً مملوءاً حباً .

وكان روح الحب هذا والحنو انعكاسا طبيعيا لحب القديس مقاريوس لهم ، فقد قيل عنه إنه « صار إلهاً على الأرض ، فكما أن اللّه يحمى العالم ويحتمل خطايا الناس هكذا كان أبا مقاريوس يستر الأخطاء التى رآها أو سمعها كأنه لم ير أو يسمع شيئاً » .

أقدّم هنا أمثلة لمحبته المترفقة :

(١) مرة أخبره بعض الإخوة أن القديس مقاريوس الإسكندرى حرم أخوين فى

الاسقيط لأنهما سقطا فى خطية ، فقال : « ليس الأخان هما اللذان حُرما بل مقاريوس » . وإذ سمع مقاريوس الاسكندرى أن الشيخ قد حرمه انطلق إلى الريف . عندئذ ذهب اليه أبا مقاريوس الكبير فوجد الناموس يلدغه ، فقال له : « أنت حرمت أخوين ، وها هما اعتزلا فى القرية ، وأنا أيضا حرمتك وأنت كفتاة صغيرة جميلة دخلتْ حجرتها الخاصة قد هربتَ إلى هنا . لقد استدعيت الأخوين وعرفت منهما ما حدث ولم أخبرهما بما حدث (أى أنه حرم مقاريوس الاسكندرى) . امتحن نفسك يا أخى ، وانظر إن كنت لم تصر ألعوبة فى يد الشيطان ، إذ نقصك الفهم فى هذا الأمر . تب إذن عن خطئك » . عندئذ قال له مقاريوس الاسكندرى : « اسمح أن تقبل ندامتى » . وإذ اتضع أمامه ، قال له الشيخ : « اذهب ، صم ثلاثة أسابيع ، تأكل دفعة واحدة كل أسبوع » . وقد كانت عادة القديس نفسه أن يصوم ليأكل مرة كل أسبوع .

(ب) إذ كان أبا مقاريوس فى مصر[11] دخل لص قلايته فى غيابه ، فلما عاد مقاريوس وجد اللص يقوم بتحميل ما كان بقلايته على جمل ، فدخل القديس إلى القلاية وصار يساعد اللص فى تقديم ما لديه ليحملها على الجمل ، وإذ تمت الحمولة صار اللص يضرب الجمل ليتحرك فلم يقم . ولما رأى أبا مقاريوس أن الجمل لا يريد أن يقوم دخل إلى القلاية ووجد فأساً صغيرة ، فأمسك بها ووضعها على الجمل ، وهو يقول : « الجمل يريد هذه أيضا أيها الأخ » ؛ ثم نخس الشيخ الجمل وقال له : قم . فقام الجمل لتوه وتحرك قليلاً من أجل الأمر الذى صدر إليه ، لكنه عاد فرقد ورفض أن يقوم حتى أفرغوا عنه كل ما عليه تماماً .

(حـ) قال أبا بطرس عن القديس مقاريوس : « حدث مرة أنه جاء مرة إلى قلاية متوحد وكان المتوحد مريضاً ، فطلب القديس مقاريوس منه إن كان يريد أن يأكل شيئاً مع أن قلايته كانت فارغة تماماً . أجابه المتوحد : « شُربة » ، فلم يتردد ذلك الرجل الشجاع بل ذهب إلى الإسكندرية ليشترى للمريض طلبه . والأمر المدهش أنه لم يعلم أحد بهذا الأمر » .

(د) قال أيضاً إن أبا مقاريوس كان يستقبل كل الإخوة فى بساطة ، فسأله بعضهم لماذا يتصرف هكذا بينهم (سالكاً ببساطة) . أجابهم : « لقد خدمت

الرب مدة اثنتى عشرة سنة حتى يعطينى هذه الموهبة ، فهل تنصحونى أن أتخلى عنها ؟ » .

نســـكه

« قيل عنه إنه كان فى دهش دائم ، يقضى أغلب وقته مع اللّه لاينشغل بأمور دنيوية »[١٢] .

يروى المؤرخ الكنسى سقراط[١٣] : « ذهبت فى إحدى المناسبات إلى القديس الأب مقاريوس فى وقت الظهيرة ، وإذ غلبنى الحرّ والظمأ طلبت قليل ماء لأشرب . أجاب : « يكفيك أنك تحت الظل ، فإن كثيرين الآن على سفر سواء فى البر أو البحر ، وهم محرومون من هذا الظل » . وفى وقت متأخر ناقشت معه موضوع النسك ، فقال لى : « تشجع يا بنى ، فإننى منذ عشرين عاماً لم آكل ولا شربت ولا نمت بما فيه الكفاية ؛ خبزى دائماً بميزان وشرابى بمقياس وقليل نوم أسرقه وأنا متكىء على حائط » .

جاء فى « الأبوفثجماتا » القصص التالية تكشف عن نسكه :

١ ـــ سأل بعض الآباء أبا مقاريوس المصرى : « لماذا إن أكلت أو صمت فإن جسدك دائماً هزيل ؟ » أجابهم الشيخ : « قطعة الخشب الصغيرة التى تستخدم لتحريك أغصان الكرمة عند حرقها هى أيضاً فى النهاية تحترق بالنار تماماً ، هكذا الإنسان وهو ينقى نفسه بمخافة اللّه ، فإن مخافة اللّه تحرق جسده » .

٢ ـــ جاء الإخوة إلى أبا مقاريوس فى الإسقيط يوماً فلم يجدوا فى قلايته سوى ماء راكد ، فقالوا له : « أبَا ، تعال إلى القرية فنحضر لك ماءً نقياً » . قال لهم الشيخ : « يا أخوة هل تعرفون مخبز فلان ومخبز فلان فى القرية ؟ » فأجابوا : نعم . قال لهم : « وأنا أيضاً أعرف ذلك ؛ هل تعرفون حقل فلان وحقل فلان ؟ وأيضا أين يجرى النهر ؟ » . قالوا : نعم . قال لهم : « وأنا أيضا أعرف ذلك ، لهذا عندما أطلب شيئاً ، فسأذهب بنفسى ، دون حاجة إلى مساعدتكم » .

٣ ـــ قيل عن افتقاد القديس مقاريوس للإخوة ، إنه قد وضع هذا القانون على نفسه : إن قدم له خمر يشرب قليلاً من أجل الإخوة ، لكنه عن كل كوب

نبيذ يصوم عن شرب الماء يوماً . فأما الإخوة إذ كانوا يريدون راحته يقدمون له الخمر ، فيتقبله بفرح ليعذب نفسه بالأكثر . وإذ عرف تلميذه السّر أخبر الإخوة ، قائلاً : « من أجل الله لا تعطوه ، فإنه يعذب جسده فى قلايته فيما بعد بالعطش » . وإذ سمعوا هذا لم يعودوا يقدمون له نبيذاً .

صراعه ضد الشياطين

تشير « الأبوفثجماتا باتريم » إلى صراع القديس مقاريوس ضد الشياطين :

١ ـــ إذ كان أبا مقاريوس راجعاً من المستنقع إلى قلايته يحمل معه سعف نخيل (خوصاً) ، قابله الشيطان فى الطريق وكان ممسكاً بمنجل ، وباطلاً حاول أن يضربه به بكل قوته ، عندئذ قال له : « ما هى قوتك يا مقاريوس ، حتى أننى أصير كلا شيء أمامك ؟ هوذا كل عمل تعمله أنت أنا أيضاً أعمله ، أنت تصوم ، وأنا أيضا (لا آكل أبداً) ، أنت تسهر ، وأنا لا أنام مطلقاً ، ولكن شيئاً واحدا به تضربنى » . سأله أبا مقاريوس : « ما هو هذا ؟ » . وقال : « اتضاعك ، لأنه من أجل هذا لا أقدر أن أصنع شيئاً ضدك » .

٢ ـــ مرة أخرى اقترب شيطان من أبا مقاريوس ، وكان معه سكين يريد أن يبتر بها قدمه . ولكن من أجل اتضاعه لم يستطع أن يفعل ، بل قال له : « كل شيء تملكه ، نملكه نحن أيضاً ، لكنك بالاتضاع فقط تتميز عنا وتتفوق علينا» .

٣ ـــ لجأ مرة إلى هيكل وثنى مهجور فى منطقة Terenouthis ، حيث استخدم جثة كوسادة ، فأرادت الشياطين أن ترعبه ، فنادوا كما بصوت موجه إلى امرأة : « يا فلانة ، تعالى هنا للاستحمام معنا » . فأجاب شيطان آخر بصوت صدر عن الجثة : « لا أقدر أن أجيء ، لأن رجلا غريبا متوسد علىّ » . أما الشيخ فلم يضطرب وإنما ضرب الجثة بيده قائلاً : « قومى ، اذهبى إلى الظلمة إن استطعتِ » . عندئذ هربت الشياطين فى خزى ، وكانوا يقولون : « لقد غلبتنا» .

٤ ـــ إذ أراد القديس مقاريوس أن يعزى الإخوة أخبرهم أن الشيطان يهرب من موضعهم (برية الإسقيط) ، فقد روى لهم هذه القصة : [جاءت أم ومعها طفلها الصغير وبه شيطان ؛ قال الطفل لأمه : « هيا بنا يا امرأة نرحل من هنا » .

أجابته : « لا أقدر على المشى » . أجابها الطفل الصغير : « أنا نفسى أحملك » . لقد دهشت من أجل حيل الشيطان وكيف كان يود منها أن يهربا] .

مع الوثنيين

كان القديس مقاريوس ورهبانه على اتصال بالمسيحيين والوثنيين الذين يعيشون فى القرى والمدن القريبة منهم . كان أيضا جامعو النطرون يأتون بجمالهم من منطقة Terenouthis ، وكانوا يقومون بتصريف منتجاتِ المتوحدين من حبال وسلال وحصر . من جانب آخر كان رهبان الاسقيط يذهبون إلى الحقول فى موسم الحصاد ليعملوا كأجراء . ومن وقت إلى آخر يأخذون الأجرة ويذهبون إلى الأسواق بالدلتا لشراء احتياجاتهم .

تروى لنا « الابوفثجماتا باتريم » كيف قاد القديس بعض الوثنيين إلى الإيمان الحقيقى . مرة إذ كان ذاهباً من الاسقيط إلى نتريا ، وكان تلميذه يتقدمه ، فرأى التلميذ كاهناً وثنياً ، عندئذ صرخ : « إلى أين أنت تجرى أيها الشيطان » . استدار الكاهن وصار يضربه بعصا حتى تركه بين حىّ وميت ، ثم ذهب بعصاته نحو القديس مقاريوس ، الذى قال له : « لتصحبك المعونة ، لتصحبك المعونة يارجل النشاط » . دهش الوثنى متسائلاً : « أى صلاح رأيته فىّ حتى تحدثت معى هكذا ؟ » . أجابه الشيخ : « رأيتك نشيطاً ، أفلا تعرف أنك نشيط لكن نشاطك باطل » . قال الكاهن : « عند سماعى تحيتك لى نُخس فىّ قلبى فعرفت أنك من قبل الله ، أما ذاك الراهب الشرير فقابلنى وشتمنى ، وأنا ضربته حتى الموت » . ثم أمسك الكاهن بقدمى مقاريوس ، وهو يقول له : « لن أتركك حتى تجعلنى راهباً » .

تقدم لنا « الأبوفثجماتا باتريم » الحوار التالى الذى جرى بين القديس مقاريوس وجمجمة رئيس كهنة وثنى :

قال القديس مقاريوس : بينما كنت أسير فى البرية يوماً وجدت جمجمة إنسان ميت ملقاة على الأرض ، وإذ حركتها بالعصا تحدثت الجمجمة معى . قلت لها : من أنت ؟ أجابت : « أنا رئيس كهنة الأوثان ، من الوثنيين الذين كانوا يقطنون

هنا ؛ أما أنت فمقاريوس اللابس الروح . عندما تحنو على المعذبين وتصلى من أجلهم يشعرون بقليل من الراحة » . قال الشيخ : « ما هذه العذابات ؟ » أجابت الجمجمة : « كما تعلو السماء عن الأرض هكذا كثرة النار التى تحتنا ! إننا واقفون فى وسط النيران من القدم حتى الرأس . لا يستطيع أحدنا أن يرى الآخر وجهاً لوجه ، بل كل وجه فى قفا الآخر . عندما تصلى من أجلنا كل منا يرى وجه الآخر قليلاً . هذا هو تلطيف حالنا » . بدموع قال الشيخ : « ملعون هو اليوم الذى وُلد فيه هذا الإنسان ! » ، ثم قال للجمجمة : « هل توجد عذابات أقسى من التى ترويها ؟ » . أجابته الجمجمة : « توجد عذابات أكثر مرارة تحتنا » . قال الشيخ : « مَنْ مِنْ الناس تحتكم ؟ » قالت الجمجمة : « نحن نجد شيئاً من الرحمة لأننا لم نعرف الله ، أما الذين عرفوه وجحدوه فهم تحتنا » . عندئذ أمسك الشيخ الجمجمة ودفنها .

معجزاتـــــه

١ ـــ قال بالاديوس : « جاء عنه تقرير شامل أنه أقام ميتاً وذلك لكى يهدى هرطوقياً كان لايعتقد فى قيامة الأجساد . وقد عُرف هذا الأمر فى البرية »(١٥) .

٢ ـــ قال القديس شيشوى : « عندما كنت فى الاسقيط مع مقاريوس ، صعد سبعة منا للحصاد . كانت امرأة تصيح خلفنا ولا تتوقف عن البكاء ؛ استدعى الشيخ صاحب الحقل ، وقال له : « ما هو أمر هذه المرأة التى تبكى بلا توقف ؟ » أجاب : « رجلها استلم وديعة من إنسان يثق فيه ، وقد مات فجأة دون أن يخبر عن موضع الوديعة ، وها هو صاحب الوديعة يود أن يأخذ المرأة وأولادها عبيداً له » . قال له الشيخ : « اخبرها أن تأتى إلينا فى راحة الظهيرة » . جاءت المرأة ، فقال لها الشيخ : « لماذا تبكين هكذا كل الوقت ؟ » أجابت : « زوجى تسلم وديعة إذ وثق به أحد الأشخاص ، وقد مات ولم يخبرنا عن موضعها قبل موته » . قال لها الشيخ : « هلمى أرينى أين دُفن رجلك » . أخذ معه الإخوة وذهب معها ، وعند الموضع المعين قال لها الشيخ : « اذهبى إلى بيتك » . وإذ صلى الإخوة سأل الشيخ الرجل الميت : « يافلان ، أين وضعت الوديعة ؟ » أجاب الجثمان : « إنها مخفاة فى البيت عند رجل

السرير » . قال له الشيخ : « استرح ثانية إلى يوم القيامة » . فلما رأى الإخوة ذلك امتلأوا خوفاً وسقطوا عند قدميه ، أما الشيخ فقال لهم : « ليس من أجلى حدث هذا ، فإننى لست بشىء ، وإنما من أجل الأرملة والأيتام تمم اللّه هذه المعجزة . هكذا يطلب اللّه النفس بلا خطية ويهبها كل ما تسأله » . ثم ذهب وأخبر الأرملة عن موضع الوديعة . ولما أخرجتها ذهبت بها إلى صاحبها وحررت أولادها . وكل من سمع هذه القصة مجّد اللّه .

٣ ـــ قيل عن القديس مقاريوس المصرى إنه كان صاعداً من الاسقيط حاملاً سلالا ، فجلس وقد غلبه التعب ، فبدأ يقول فى نفسه : « أنت تعلم يا إلهى جيداً أنه ما بقيت فىّ قوة » ؛ ففى الحال وجد نفسه عند النهر .

٤ ـــ كان لرجل من مصر ابن مفلوج ، أحضره إلى قلاية القديس مقاريوس ، ووضعه عند الباب وكان الابن يبكى ، أما الأب فابتعد مسافة . توقف الشيخ عند رؤيته للطفل ، ثم قال له : « من أحضرك هنا ؟ » . أجاب الطفل : « أبى ألقانى هنا وذهب بعيداً » . عندئذ قال له الشيخ : « قم وعد إليه » . للحال شفى الطفل ، وقام ، ففرح أبوه ، وعاد الاثنان إلى بيتهما .

القديس مقاريوس والامرأتان

رفع القديس مقاريوس عينيه نحو السموات ، وتحدث مع اللّه ، قائلاً : « إنى أعجب هل يوجد بين كل البشر من يحبك مثلى ؟ هل يوجد من يصوم ويصلى ويخدمك مثلى ؟ » . هكذا جُرب القديس مقاريوس من الشيطان ، إذ سقط فى افتخار كهذا ، سقط ذاك الذى فاق الآخرين فى التمتع ببهات روحية ، وحوّل البرية اليابسة إلى سماء أخرى ، تتلألأ بكواكب بهية تضىء العالم كله . على أى الأحوال ، لم يرد الله محب البشر أن يتركه فى أفكاره ، فأعلن له أن يذهب إلى بيت معين فى المدينة ، هناك يتعلم درساً فى الاتضاع . دُهش القديس مقاريوس مفكراً من يكون هذا المتوحد الذى يعيش فى المدينة ، ويفوقه فى الروحيات . ما أدهشه أكثر أنه إذ قرع الباب فتحت له سيدة . ركعت أمامه ثم استدعت سيدة أخرى . أحضرت السيدتان قليل ماء لتغسلا قدميه ، وطعاماً ليأكل ، أما

هو فقال : « لن أسمح لكما أن تغسلا قدمى ولن ألمس طعامكما حتى ترويا لى قصتكما . فقد جئت بناء على إعلان إلهى متحملاً مشقات السفر ، فلا تخفيا شيئاً عنى » .

أجابته إحداهما : « أيها القديس ، إننا لسنا أختين ، إنما تزوجنا أخوين ، ونحن نتوق إلى البتولية لكن الله لم يسمح لنا بذلك . نصلى معاً ونصوم معاً ، ونسمع كلمة الله فنساعد بعضنا البعض . لنا حياة مشتركة ، أحيانا أرضع طفلها ، وأحيانا تفعل هكذا بطفلى . ما بالمنزل ليس ملكاً لى ولا لها ، إنما نتمم ما يكفى لاحتياجاتنا ، والباقى نقدمه للفقراء » .

فلما سمع القديس مقاريوس هذا ترك المرأتين وهو يقرع صدره ، قائلاً : « ويلى ، ويلى ، فانه ليست لى محبة هاتين السيدتين . لقد تخطت محبة « العلمانيين (الشعب) نسك الرهبان ! » .

أقــــواله

+ إن كنت وأنت تنتهر أحداً يتحرك فيك الغضب ، فأنت تُشبع هواك ، ففى خلاص أخيك لا تخسر نفسك .

+ سُئل القديس مقاريوس : « كيف ينبغى لنا أن نصلى ؟ » أجاب الشيخ : « ليست هناك حاجة لإقامة أحاديث طويلة ، إنما يكفى أن تبسط يديك

+ وتقول : « يارب ، ارحمنى حسب ارادتك ومعرفتك » . وإذا هاجمك المقاوم باكثر شدة ، قل : « يارب أعنى » ، فإنه يعرف ما نحتاج إليه ، وهو يظهر رحمته لنا .

+ لا ترقد فى قلاية أخ سمعته رديئة .

+ إن احتفظنا بتذكر الأخطاء التى ارتكبها الناس ضدنا ، فإننا نحطم القدرة على تذكر الله ، لكننا إن تذكرنا الشرور التى تفعلها الشياطين نصير بلاضرر .

+ لا تصنع شراً بأحد ، لا تدن أحداً ؛ احفظ هذا فتخلص .

+ وبينما كان القديس مقاريوس نازلاً إلى مصر مع بعض الإخوة فى أحد الأيام ، سمع ولداً يقول لأمه : « أماه يوجد غنى يحبنى لكننى أحتقره ، ومن الجانب

الآخر يوجد فقير يكرهنى وأنا أحبه . فلما سمع القديس مقاريوس ذلك تعجب ؛ فقال له الإخوة : « ما الذى أدهشك فى الأمر أيها القديس ؟ » قال لهم الشيخ : « بالحق ربنا غنى ويحبنا ونحن لا ننصت إليه ، بينما الشيطان عدونا فقير ويبغضنا ومع ذلك فنحن نحب دنسه » .

+ كان القديس بفنوتيوس تلميذ القديس مقاريوس يكرر قول الشيخ : « عندما كنت صغيراً أعيش بين الأطفال الآخرين اعتدت أن آكل عنيبات ، أما هم فاعتادوا أن يذهبوا ويسرقوا التين الصغير ويجروا ، وإذ سقطت منهم تينة أمسكتها وأكلتها . كل مرة أتذكر هدا الأمر أجلس وأبكى (نادماً) .

+ إن صار الذم بالنسبة لك كالمديح ، والفقر كالغنى ، والحاجة كالفيض ، فإنك لا تموت . حقاً إنه يستحيل بالنسبة لإنسان ثابت فى الإيمان ويجاهد متعبداً أن يسقط فى دنس الآلام وتخدعه الشياطين .

كتاباتـــه[١٦]

لا يعرف بالاديوس أو روفينوس كتابات للقديس مقاريوس ، لكن مخطوطات فى عصور متأخرة تنسب بعض الكتابات له ، منها أقوال ورسائل وصلوات وعظات ومقالات..

إلى يومنا هذا لا يمكن تقديم إجابة عن السؤال : من هو الكاتب الحقيقى للعظات السبع والخمسين « عظات روحية » المشهورة والمنسوبة إليه ؟ و L. Villecourt هو أول من اكتشف أن هذه العظات تحمل آثاراً للفكر ال Messalianism . هذا الاسم من أصل سريانى : « ميسالين » أى « رجال صلاة » ظهروا فى النصف الثانى من القرن الرابع فى الرها بجوار منطقة ما بين النهرين ، أدانهم مجمع أفسس سنة ٤٣١ م . حفظت أعمالهم فى حماية اسم عظيم بنسبها للقديس مقاريوس المصرى ، وذلك فى حوالى سنة ٤٣٤ م ...

كان لهذه العظات مركز مرموق فى تاريخ التصوف (الحياة الباطنية) المسيحى الأول ، ولا تزال تعتبر مصدراً للاستلهام فى التصوف الحديث .

+ + +

٦ ــ القديس شنودة

يعتبر القديس شنودة (شنوتى) أهم شخصية تمثل رهبنة الشركة فى مصر بعد القديس باخوميوس[١] . كان أباً (رئيساً) للدير الأبيض الشهير فى أتريب[٢] ، فى صحراء طيبة ، وذلك لأكثر من ٥٦ عاماً (القرن الرابع / الخامس) ، قاد ٢٢٠٠ راهباً ، ١٨٠٠ راهبة كما أخبرنا تلميذه وخلفه القديس ويصا .

دُعى « أرشمندريت » أى « رئيس المتوحدين » ، إذ كان يمارس حياة الوحدة من حين إلى آخر ، كما شجع بعض رهبانه على الانسحاب إلى البرية بعد سنوات قليلة من ممارستهم حياة الشركة ، دون قطع علاقتهم بالدير تماماً . بينما رأى القديس باخوميوس فى « الشركة » ذروة السمو الرهبانى ، يراها القديس شنودة مرحلة انتقالية تعد النفوس الناضجة لحياة المتوحدين الأكثر نسكاً .

فى سنة ٤٣١ م ، رافق القديس أنبا شنودة القديس كيرلس الإسكندرى فى مجمع أفسس المسكونى .

مع هذا كله ، لا نجد اسمه فى الأدب الأوربى فى الفترة الخاصة بآباء البرية ، ويرجع ذلك للسببين التاليين :

١ ــ بدأ بحركة تحرير لينقى الأدب القبطى من كل ثقافة هيلّينية ، فلم يسمح لأحد أن ينطق باليونانية فى أديرته ؛ مستخدماً اللغة القبطية « الصعيدية » فى عظاته وكتاباته . لهذا لم يرد أحد من آباء الغرب أن يترجم شيئاً من أعماله ، وذلك على مدى قرون طويلة .

٢ ــ على عكس بقية أنظمة الرهبنة القبطية ، كان جميع رهبانه أقباطا أصليين ، ولم يكن يسمح لأجنبى بالالتحاق بجماعاته الرهبانية .

صبوته

قبل مولده تنبأ القديس أثناسيوس عن دوره العظيم فى الرهبنة المصرية ، وما تنعم به الكنيسة من ازدهار وانتشار . أيضا أحد الرهبان الباخوميين يدعى هورسيوس (أورسيوس) إذ التقى بوالدة الأنبا شنودة ، قال لها : « الله يبارك ثمرة أحشائك ، ويهبكِ ابناً ، يكون كالعنبر تنتشر رائحته الذكية فى كل العالم ... » .
على أى الأحوال ، ولد القديس شنودة فى « شنلالى » ، وهى قرية بالقرب من أخميم بصعيد مصر . وقبل بلوغه العاشرة من عمره ، سأل والداه الباران من رعاتهم أن يعلماه رعاية الغنم ، وأن يعيداه إلى بيته قبل حلول المساء . اعتاد الصبى أن يقدم طعامه لبعض الرعاة ويقضى يومه كله صائماً ، ثم يعود مع أحد الرعاة حتى منتصف الطريق نحو بيته .

اكتشف والده أنه يترك الرعاة مبكراً كل يوم ، لكنه يصل البيت فى وقت متأخر بالليل ، فتبعه سراً ليراه واقفاً بجوار بئر فى الطريق يصلى لمدة طويلة . فى اليوم التالى رافق الأب ابنه لا إلى الرعاة وإنما إلى خاله بجول ، مؤسس الدير الأبيض .

مع خاله بجول

فى الدير الأبيض ، سأل والد شنوده الأب بجول أن يبارك الصبى ، وإذا بالأب يمسك بيد الصبى ويضعها على رأسه ، ليقول : « إنى فى حاجة إلى بركة الصبى ، فإنه إناء مختار للمسيح ، سيخدم السيد بأمانه كل أيام حياته ... » .

جذب نمو الصبى الملحوظ أنظار بجول ورهبانه جميعهم ، وذات يوم رأى أحد الشيوخ أصابع الصبى كشموع تضيىء عندما يبسط يديه للصلاة .

فى عام ٣٨٣ م ، خلف القديس شنودة خاله بجول كأب للدير الأبيض ، واضعاً نظاماً حازماً للغاية للرهبنة .

أحكامه الرهبانية

يختلف نظام الشركة الذى أقامه القديس شنودة عن النظام الباخومى ، فقد اتسم بحزم أشد ، وتتلخص خطوطه الرئيسية فى النقاط التالية :

١ ـــ يقضى طالب الرهبنة فترة اختبار فى بيوت خارج أسوار الدير ، وليس داخلها كما فى النظام الباخومى ، ويكتب طالب الرهبنة تعهداً يوقع عليه قبل رهبنته ، ويتلوه أمام الإخوة داخل الكنيسة . يُحفظ هذا التعهد الكتابى فى « أرشيف » الدير .

« أتعهد أمام الله فى هذا الموضع المقدس ، وتكون كلمة فمى شاهدة علىّ ، أننى لا أرغب فى تدنيس جسدى بأية وسيلة . لا أريد السرقة ، ولا الأقسام الباطلة ، ولا أرغب فى صنع الشر خفية . إن عصيت ما تعهدت به لا أود دخول ملكوت السموات ، فإننى أرى الله الذى أنطق أمامه بصيغة التعهد . ليعذب نفسى وجسدى فى نار جهنم ، لأننى عصيت ما جاء فى التعهد الذى أنطق به[٣] » .

لا نجد فى التعهد إشارة إلى الوعود المعروفة الخاصة بالفقر والطهارة والطاعة ، مع أن هذه كانت لازمة للسلوك بكمال فى نظام الشركة .

٢ ـــ كان كل دير يديره أب ، هذا بدوره يخضع للأرشمندريت كأب لكل الأديرة .

وتُقام أربعة اجتماعات عامة لكل الرهبان سنوياً ، يحضرها أيضا المتوحدون ، وذلك لمناقشة أوضاع هذه المؤسسات .

٣ ـــ من جهة العبادة ، تتلو كل جماعة من الرهبان صلوات قصيرة قبل البدء فى أعمالهم . الصلوات الخاصة تتكون من المزامير والتسابيح الكنسية ، تُتلى فى القلالى بارشاد الأب الروحى ، أما الصلوات الجماعية فيجتمع الرهبان أربع مرات يومياً لهذا الغرض : فى الصباح وعند الظهر ، وعند الغروب ، وبالليل . يجتمعون وينصرفون فى هدوء كامل ، لا يفكرون إلا فى الصلوات التى يتلونها .

بجانب هذه الصلوات تقام ليتورجيا الأفخارستيا أسبوعياً . وكان يسمح للعائلات وكل الشعب المحيط بالأديرة أن يزوروا الأديرة فى السبوت للتمتع بخدمة « العشية » وسماع العظة ، كما يشتركون فى القداس الإلهى مع الرهبان فى أيام

الآحد . وكان الرهبان يقدمون الطعام للجماهير ، وكان القديس أنبا شنودة يعظهم بنفسه .

٤ ـــ أنشأ مدرستين فى الدير الأبيض ، وشجع الرهبان على التعلم ، إذ آمن أن التعليم هو السلاح الفعّال ضد العادات الوثنية ؛ كما شعر بالمسئولية نحو تأسيس مدارس فى القرى المجاورة .

قائد سياسى (ضد الاستعمار)

عاش القديس شنودة فى فترة حرجة للغاية فى التاريخ المصرى ، حيث وُجدت فجوة عظيمة بين الأقباط والبيزنطيين . عاش الفلاحون المصريون غالباً كعبيد ، يعملون بكل جهدهم لحساب الحكام الطغاة البيزنطيين أو لحساب طبقة أرستقراطية .

على الرغم من غيرته الشديدة نحو ممارسة حياة الوحدة لكنه وضع على عاتقه أن يدافع عن المضطهدين فى المحاكم ، ومتى فشل كان يكتب للإمبراطور نفسه . بهذا دفع شعبه ألّا يستسلموا للضيق (الاستعمار) بل يلزمهم الجهاد حتى النهاية . لقد خلق القومية المصرية أو « القبطية » لهذا استخدم فى عظاته اللغة القبطية لا اليونانية .

فى اجتماع عام أثار الجمهور بقوله : [قلوب الحكام مملوءة شراً وخداعاً وظلماً وطمعاً . لهم هدف واحد هو جمع المال على حساب الفقراء الذين هم الضحية . من يقدر أن يحصى الأتعاب التى يلاقيها الشعب من هؤلاء الحكام ؟ فإننى أعرف بعضا لم يجدوا طعاماً ليأكلوا هم وحيواناتهم . أظن أنهم يريدون أن يقيموا من المصريين عبيداً لهم ، يضعون النير على أكتافهم] .

مصلح اجتماعى

ترتبط العبادة ـــ عند القديس شنودة ـــ بالحياة الاجتماعية ؛ الدين هو حب عملى وتقوى . لهذا لم ينعزل القديس شنودة ورهبانه الآلاف عن المجتمع المصرى . نذكر على سبيل المثال عندما أغار الغزاة Blemye على صعيد مصر وسبوا آلافا من

الشعب ، قابل الغزاة وأقنعهم أن يأخذوا الغنائم ويتركوا النفوس ؛ ثم فتح ديره للمسبيين البالغين آلافا من النفوس ليستقروا هناك لمدة ثلاثة شهور . كرّس الرهبان وقتهم لخدمتهم ، وقام سبعة من الأطباء الرهبان بتضميد الجراحات . خلال هذه الفترة مات ٩٤ شخصاً دفنوا بالدير ، بينما وُلد بالدير ٥٢ طفلاً . أكلت الجماهير ٨٥٠٠ أردب من القمح مع كميات هائلة من العدس والزيت والفول ... بهذا يمكننا أن نتصور عدد الضيوف الذين عاشوا فى الدير هذه المدة الطويلة الخ ... وكيف آمن الرهبان بالحب العملى كأهم من أى قانون أو تدبير رهبانى .

كرازته

رأينا القديس شنودة يفتح أديرته للشعب أيام السبوت والآحاد . اعتاد أن يشرح لهم الكتب المقدسة ، مهتماً باقتلاع العادات الوثنية من جذورها . وقد ساعدته بلاغته فى التغلب على الوثنيين بأخميم . أحيانا كان يستخدم العنف ليثيرهم على تحطيم الآثار الوثنية ومعابدها .

جهاده الروحى

اعتاد القديس شنودة على ممارسة الأعمال النسكية القاسية ؛ على سبيل المثال يخبرنا تلميذه ويصا : « صنع شنودة صليباً فى أسبوع الآلام وربط نفسه عليه طوال الأسبوع كله . فعل هكذا كمن يود أن يتألم مع سيده ... اعتاد أن يأكل خبزاً وملحاً لعدة أيام ، ويقضى ليالى كثيرة فى الصلوات ... » .

تجاربه

واجه القديس شنودة تجارب شيطانية كثيرة ، لكنه بالإيمان والبر انتصر .

مرة ظهر له الشيطان على شكل ملاك ، قائلاً له : « السلام ، أيها القديس المجاهد ... أرسلنى الرب إليك ، لأنك بار وتجاهد كثيراً جداً . لقد احتملت الأتعاب والنسكيات فى هذه البرية بما فيه الكفاية ، فاذهب إلى المدن لترشد الناس » . أجابه القديس باتضاع : « إن كنتَ مُرسلاً من قبل الرب ، ابسط

يديك على شكل الصليب ، علامة ربك يسوع » . وإذ سمع الشيطان ذلك هرب إذ لم يحتمل اسم المخلص وصليبه .

معجزاته

أشير هنا إلى بعض المعجزات التى صنعها الرب على يديه :

١ ـــ مرة إذ عرف القديس أن القمح لا يكفى ، ولا يوجد مال للشراء ، اجتمع مع عشرين راهباً فى الكنيسة وصلوا ؛ فبارك الله القمح ليكفى الاحتياجات ويفيض .

٢ ـــ مرة إذ اجتمع كل الرهبان معاً بالليل فى الشتاء ، دخل ثلاثة رجال وقورون يشبهون الملائكة ، واشتركوا فى العبادة ثم انصرفوا . فسأل الرهبان الأب شنودة عن هؤلاء الذين رافقهم حتى الباب الخارجى ، أجاب : « إنهم يوحنا المعمدان وإيليا النبى وتلميذه اليشع ، جاءوا لتعزيتنا وتقويتنا ، إذ عاشوا هم أيضا فى البرية مثلنا » .

٣ ـــ قيل إن سفير الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير سأله أن يرافقه لكى يبارك الإمبراطور فاعتذر له بسبب كثرة مسئولياته ، فلما هدده السفير بأنه سيستخدم العنف ، دخل الكنيسة وصلى . وفى الحال حملته سحابة إلى الامبراطور ، فباركه وأحضر منه رسالة إلى سفيره عليها ختمه .

٤ ـــ قيل عنه إنه إذ كان راجعاً من أفسس الى مصر ، بعد اشتراكه فى مجمع أفسس المسكونى ، رفض الملاحون قبوله على السفينة التى ركبها القديس كيرلس ، لأنهم كانوا لا يعرفونه . وعند إبحار السفينة رأى القديس كيرلس القديس شنودة وتلميذه ويصا محمولين على سحابة ، فصرخ « باركنا يا أبانا القديس ، يا إيليا الجديد ![٤] » .

هذاالقديس الذىوُهب صنع عجائب عظيمة له ضعفاته. بحسب ماجاء فى كتابات تلميذه ويصا،فقد زار القديس شنودة دير القديس آمون فى نتريا بعد حضوره من أفسس ، وإذ وجد الرهبان يأكلون لحماً دهش وصار يدينهم فى فكره

سراً . أمر الأخ المسئول عن المطبخ راهباً أن يضع يده فى الإناء وبه الطعام يغلى ، ويحضر منه قطعة لحم . وكم كانت دهشة القديس شنودة حينما رأى يد الراهب لم تُصب بسوء ، فآمن بأن القداسة لا ترتبط بنوع الطعام الذى يأكله الإنسان .

كتاباته[٥]

يعتبر القديس شنودة من أعظم الكتاب المسيحيين بالقبطية ؛ وكما قال ويصا إنه ترك عدداً ضخماً من الرسائل والعظات ؛ أغلب الرسائل موجهة إلى رهبان وراهبات ، تعالج تساؤلات رهبانية ، أما العظات فتمثل صراعاً ضد العادات الوثنية والهرطقات . عظاته روحية وغالباً ما تحمل طبيعة انقضائية (اسخاتولوجية) أى الإيمان بالأخرويات مثل القيامة والحساب وعلاوة على هذا ، فله رؤى متعددة وإعلانات منسوبة إليه .

من أقوله

+ إنه لنفع عظيم أن تزور أماكن الشهداء والقديسين للصلاة والتقديس بالشركة فى الأسرار بمخافة المسيح . أما من يزور هذه المواضع للتمتع بالملذات ، يأكل ويشرب ويلهو ويرتكب خطايا ويسكر ... فإنه يُغضب الرب القائل : « بيتى بيت الصلاة يُدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » مت ٢١ : ١٣ .

لهذا من يأتى إلى أعياد الشهداء ليفسد هيكل الرب ، يقع تحت طائلة الدينونة ، وينال لعنة عوضا عن بركة صلوات الشهيد .

+ ليسرع الإنسان بعد تناوله الأسرار الى القلاية بفرح وسلام .

يلزم ألا يتحدث أحد مع قريبه قبل الاجتماع أو بعده ، إلا عند الضرورة لنفع الجماعة ... بهذا نحفظ النعم غير المحصاة التى ننالها ...

+ + +

الرهبنة النسائية الأولى

تبنت النساء الرهبنة بكل أشكالها ، إذ لم يكنّ أقل غيرة من الرجال فى محبتهن للّه . وتوضح الأناجيل أن نساء كثيرات تبعن ربنا يسوع المسيح حتى صليبه وقبره ، وكن فى غيرتهن مشتاقات إلى تكريس حياتهن للتعبد للّه . وفى إنجيل لوقا مدح ربنا يسوع المسيح مريم أخت مرثا هذه التى فضلت الجلوس عند قدمى الرب لتسمع كلماته الإلهية عن أن تخدمه مع أختها . قال السيد لمرثا : « مرثا مرثا ، أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ، ولكن الحاجة إلى واحد ، فاختارت مريم النصيب الصالح الذى لن يُنزع منها » لو ١٠ : ٤١ ، ٤٢ . هكذا كانت مريم هى أول إنسان مسيحى حُسب مثلاً حيا للحياة الرهبانية ، أو حياة التأمل . أيضا عُرفت القديسة مريم الثيؤتوكوس (والدة الاله) عند الملتحقات ببيوت العذارى بالإسكندرية كمثل عظيم لهن . فقد اعتبرنها العذارى « عذراء العذارى » والشفيعة عنهن[١] .

جماعات العذارى

منذ القرن لأول ، فَضَّلت نساء كثيرات الحياة البتولية ، ليس استخفافاً بالحياة الزوجية ، وإنما رغبة فى تكريس كل حياتهن لعريسهن الروحى يسوع المسيح . وقد لعبت هؤلاء العذارى القديسات دوراً حياً فى الكنيسة المسيحية الأولى ، فكنّ بالاضافة إلى عبادتهن يقمن بخدمة الأرامل والأيتام والشيوخ والمرضى .

كانت جماعات العذارى تدعى « بارثينون »[٢] ، وقد أودع القديس أنطونيوس أخته لدى إحدى هذه الجماعات .

عاشت بعض العذارى فى بيوتهن ، كما فعلت زوجة القديس آمون . ففى سنة ٢٩٧ م إذ التزم القديس آمون بالزواج تحت ضغط عمه ، عاش مع زوجته ثمانية عشر عاماً كأخ مع أخته . أما هى فلم تكتفِ بحياة البتولية الطاهرة وإنما عرفت سمو طريق الوحدة ، فطلبت منه أن يتركها فى البيت ويبنى هو لنفسه قلاية فى جبل نتريا ، ويقوم بزيارتها مرتين كل عام .

وجدير بنا أن نعرف أن أحد الاتهامات التى وُجهت ضد المسيحيين الأوائل أنهم كانوا يحرضون الفتيات الصغيرات على عدم الزواج . فكان الاضطهاد أحيانا يثور بسبب رفض فتاة مسيحية الزواج بشخص غير مسيحى ، قد يكون والياً أو شريفاً . من بين هؤلاء الفتيات القديسة ثيؤدورة الإسكندرانية ، التى استشهدت فى الاضطهاد الذى أثاره دقلديانوس .

أديرة الراهبات

وُجدت أول جماعة رهبانية نسائية فى العالم فى مدينة الإسكندرية على يدىْ القديسة سينكليتكى ، التى حُسبت أماً للراهبات . وقد حفظ القديس البابا أثناسيوس الرسولى سيرتها وتعاليمها . ومع أنها أرادت حياة الوحدة لكن روحانيتها وتعاليمها جذبت فتيات كثيرات لِيُقمن معها . عاشت حتى الثمانين من عمرها تقود بناتها الراهبات بنجاح بكلماتها ومثالها حتى عندما عانت من مرضها الخطير (سرطان) فى أواخر حياتها لمدة ثلاث سنوات ونصف . كتب القديس أثناسيوس وهو يذرف الدموع من أجل آلامها التى شابهت آلام أيوب ، وقبل نياحتها بثلاثة أيام نظرت رؤيا سماوية ، وقد فارقت الحياة وهى فى حالة دهش .

أسس القديس باخوميوس ديرين للنساء ، أحدهما فى طيبة بجوار دندرة بصعيد مصر ، يضم ٤٠٠ راهبة تحت قيادة مريم أخته . فى هذا الدير قررت والدة تادرس تلميذه أن تقيم عندما رفض ابنها رؤيتها ، فاختارت الحياة الرهبانية ، قائلة : « لعلى أراه يوماً بين الإخوة ، بل ولكى أربح أنا نفسى » . أما الدير الآخر فأسسه عبر النيل فى Tismenae .

وقد جاءت قوانين النساء التى وضعها القديس باخوميوس هى بعينها التى للرجال مع إختلاف نوع الخدمة ، فالرهبان مثلاً يهتمون ببناء الأديرة بينما تركوا الحياكة للراهبات .

أشار القديس بالاديوس إلى هذا القانون ، وهى أنه لا يدخل رجل إلى الأديرة النسائية الباخومية سوى الكاهن والشماس اللذين يذهبان إلى الدير أيام الآحاد فقط[٣] .

يخبرنا القديس بالاديوس أيضاً عن ناسك يدعى « إيلياس[٤] » كان يهتم بالعذارى ... فأظهر حنوا على الناسكات ، وإذ كان له دخل كبير وممتلكات فى أتريب أيضا[٤] بنى لهن ديراً كبيراً ، وقد اهتم بهن مقدماً لهن كل احتياجاتهن ...

راهبات متوحدات فى البرية

اجتذبت الحياة الملائكية فى البرية نساء قبطيات وأجنبيات سلكن كأنهن « رهبان رجال » ،وعشن فى قلالٍ ، يجاهدن من أجل الحياة الكاملة ، ليس بأقل من آباء كثيرين مشهورين ، منهن القديسات هيلاريا (إيلاريا) وأنستاسيا وأبوليناريا .

جاءت إلى مصر بعض أمهات دير أجنبيات ، زرن بريتها ليسترشدن برهبان أقباط ، من هؤلاء القديسة ميلانيا الكبرى التى استطاعت زيارة مصر عام ٣٧٤م، وحفيدتها ميلانيا الصغرى التى زارت مصر سنة ٤١٨ م .

لا نستطيع أيضاً أن نتجاهل القديسة مريم المصرية التى تابت فى أورشليم ، هذه عاشت ٤٨ عاماً فى البرية عبر الأردن لم تر وجه أحد سوى القديس سوزيما مرتين فى السنتين الأخيرتين من حياتها .

أمثلة لراهبات ومتوحدات

١ ـــ الأم ســـــارة

كثير من الأمهات نلن عطية القيادة الحقة والتمييز الروحى . لقد قدن راهبات كثيرات ، وكن يقدمن لهن أحيانا المشورة كما للرهبان أيضاً ، وقد حفظ آباء البرية بعض أقوالهن . إحداهن الأم سارة التى عاشت فى البلسم ، وردت أقوالها فى « الأبوفثجماتا »[٧] ، أقتطف منها الآتى :

+ قيل عن الأم سارة إنها هوجمت بشيطان الشهوة لمدة ١٣ عاماً ، ولم تصلِّ قط بعمق لكى تتوقف المعركة ، إنما اعتادت أن تسأل هكذا : « هب لى قوة يا الله ! » .

+ مرة هاجمها هذا الروح بأكثر إصرار ، مذكراً إياها بأباطيل العالم ، أما هى فسلمت نفسها لمخافة اللّه ، ومارست صوماً عنيفاً وصعدت إلى السطح تصلى . عندئذ ظهر لها روح الشهوة فى صورة جسمانية ، وقال لها : « لقد غلبتينى يا سارة ! » أجابت : « أنا لم أغلبك ، بل ربى يسوع المسيح ! » .

+ جاء عن الأم سارة أنها كانت تعيش بجوار النهر ٦٠ عاماً لم ترفع عينيها قط لتنظره .

+ زار مرة بعض رهبان من الإسقيط الأم سارة ، فقدمت لهم سلة فاكهة صغيرة، فتركوا الجيد وأكلوا من الردىء . عندئذ قالت لهم : بالحقيقة إنكم رهبان إسقيطيون » .

+ مرة أخرى جاء شيخان متوحدان إلى البلسم ليزوراها ... ولما وصلا قال أحدهما للآخر : « هلم نهين هذه المرأة العجوز » ، فقالا لها : « احذرى من أن تنخدعى قائلة فى نفسك : هوذا متوحدون يأتون إلىّ ليروننى وأنا امرأة». أما الأم سارة فأجابت : « بحسب الطبيعة أنا امرأة ، لكننى لست كذلك حسب أفكارى » .

+ قالت أيضاً لبعض الإخوة : « إننى أنا رجل (أصارع) ضد الخطية » وأنتم نساء (عروس المسيح) .

+ إننى أضع رجلى على السلم لأصعد فأتصور الموت قدامى قبل أن أنقل الرجل الأخرى .

+ جيد أن يصنع الإنسان رحمة ولو من أجل الناس ، ولوكانت لإرضائهم ، فإنه يمكن بهذا أن نبدأ فنطلب مسرة اللّه (لا الناس) .

+ إن طلبت من اللّه أن أصنع إرادة كل الناس فإنى سوف أوجد تائهة على باب كل أحد ، لهذا أصلى أن يبقى قلبى نقياً مع كل أحد وأنا مبتعدة عن كل أحـــد .

٢ ــ القديس هيلارى (إيلارى الخصى)[٨]

تحطم زينون الإمبراطور الصالح (٤٧٤ ــ ٤٩١ م) لأن ابنته الكبرى (١٨ سنة) كانت قد فقدت منذ زمن طويل ، والصغرى ثيؤبستا سكنها روح شرير . أُرسلت الابنة إلى شيوخ شيهيت للصلاة من أجلها . واذ وصلت ثيؤبستا إلى الإسقيط اجتمع عدد كبير من الرهبان وكانوا يصلون طالبين مراحم اللّه ، وبعد أيام قليلة طلبوا من القديس إيلارى الخصى أن يأخذها معه إلى مغارته ويصلى من أجلها . فى البداية رفض ذلك ، لكنه تحت الضغط قبل أن يأخذ الأميرة إلى مغارته ، وبدأ يصلى حتى الصباح ، فوهبها اللّه الشفاء ، وفرح كل الرهبان إذ كانوا يحبون الإمبراطور لصلاحه .

فرح الإمبراطور والإمبراطورة وكل رجال البلاط عند وصول الأميرة ؛ وفى الحال أرسل الامبراطور إلى رهبان الإسقيط يطلب أن يحضر القديس إيلارى إلى قصره لنوال بركته . بدموع كثيرة وافق القديس إيلارى على الدعوة .

استُقبل القديس فى القصر بحفاوة عظيمة ، بعد ذلك سأله الإمبراطور وزوجته سراً : « لماذا كنت تقبّل ابنتنا طوال الليل يا أبانا ؟ » . وافق القديس أن يخبرهما بالحقيقة إن وعداه بأنهما لن يمنعاه من العودة إلى مغارته ؛ عندئذ قال لهما : « أنا ابنتكما هيلاريا » . قبّلاها وسألاها أن تبقى معهما فى القصر ، أما هى فأخبرتهما إنها فى مغارتها أكثر سعادة من حياتها السابقة .

بعد ثلاثة شهور ذكرتهما الابنة بالوعد ، وطلبت منهما ألا يخبرا أحداً بأمرها ، إذ لا يعلم أحد فى البرية بأمرها سوى أبيها الروحى « بموا » الذى كان يرشدها لمدة ثلاثة شهور . عادت الراهبة إلى المغارة لتعيش فيها خمس سنوات .

عاد الراهب المتنكر إلى مصر يحمل رسالة من الإمبراطور إلى والى الإسكندرية، يطلب فيها أن يقدم قمحاً وزيتاً للرهبان سنوياً ، كما أُقيمت بعض المبانى على نفقة الإمبراطور زينون .

لقد عاشت القديسة هيلاريا فى المغارة خمس سنوات بعد عودتها ، مفضلة حياة البرية عن قصر والديها .

٣ ــ القديسة مريم المصرية

فى زيارتى لدير الثالوث القدوس بجوردن فيل بنيويورك ، لفت نظرى أيقونة القديسة مريم المصرية وقد احتلت مركز الصدارة فى صالة الآباء الرهبان . وفى باريس فى كاتدرائية نوتردام نجد مقصورة باسم القديسة مريم . وإذا ما دخلت متحف الفن بفيلادلفيا ترى أيقونة رائعة لهذه الناسكة المصرية .

فى البرية

مع بدء الصوم الكبير فتحت أبواب الدير المجاور لنهر الأردن وخرج الآباء الرهبان يترنمون بمزاميرهم . لقد عبروا النهر وتفرقوا كل واحد فى طريقه ، يقضون فترة الصوم ، شغلهم الشاغل هو التفكير فى أبوّة الله ، مكرسين جل وقتهم فى التمتع بالشركة العميقة مع مخلصهم ، حتى إذا ما حل أحد الشعانين يتواجد الكل فى الدير ثانية .

هكذا خرج الأب زوسيما وتوغل داخل البرية ، متأملا فى النعمة الإلهية التى انتشلته ليقيم فى أحد أديرة فلسطين منذ نعومة أظافره حتى بلغ بدء الخمسينيات من عمره . لكن أفكار العظمة الباطلة ثارت ضده ، محدثاً نفسه : « هل يوجد على وجه الأرض راهب يقدر أن ينفعنى ، ويعلمنى شيئاً من النسك لم أبلغه بعد ؟ ! هل يوجد من دخل البرية وتفوق على ؟ ! » .

وإذ هو غارق فى تفكيره هذا إذا بملاك يظهر له فجأة ويقوده إلى دير قرب نهر الأردن ، حيث رأى هناك الممارسات النسكية والحياة الملائكية فاتضع فى عينى نفسه .

وفى اليوم العشرين من رحلته الروحية هذه ، بينما كان يصلى إذ به يلمح عن بُعد شبه شكل إنسان ، بشعر طويل فضى مع رمادى اللون ... « أهذا خيال ؟ ! « أو لعله شبح ؟ ! « أم خدعة شيطانية ؟ ! » . عاد فتحقق الأمر

مرة أخرى ، فإذا به شكل إنسانى ، عارٍ ، داكن اللون ، كما لو كان قد أحرقته الشمس . تهلل الأب ، راجياً أن يرى أحد المتوحدين القاطنين فى البرية ، الذين كرسوا كل حياتهم للشركة مع الصديق الحقيقى ، مخلصنا يسوع المسيح . جرى زوسيما نحو ذاك الشخص متتبعاً إياه ، أما الشبح فقد جرى منه بعيداً . وإذ اقترب إليه الأب زوسيما صرخ : « لماذا تهرب منى يا خادم الله ؟ لماذا تهرب من شيخ مسن مثلى ؟ ! » وإذ اقترب الشيخ من الشبح رآه كما لو كان قد هوى فى فجوة بين الصخور . عندئذ ركع الشيخ وبكى كطفل ، ودوى صدى بكاءه فى كل البرية . « أيها الأب زوسيما ، اغفر لى من أجل يسوع ، فإننى لن أقدر أن أقترب إليك ! إننى امرأة عارية ! ألقِ عنك رداءك لكى أستتر به فأجىء إليك وأنال بركتك! » .

دهش الأب إذ عرفته ونادته باسمه ... فألقى رداءه ، أما هى فالتقطته وسترت به جسدها ، ثم جاءت إليه تقول : « أيها الأب زوسيما ، لماذا ترغب فى رؤية امرأة خاطئة ؟ ماذا تريد أن تتعلم أو تسمع منى ؟ » . فارتمى الشيخ على الأرض طالباً بركتها ، أما هى فانحنت أمامه تقول : « أيها الأب زوسيما ، إنك أنت الذى تعطى البركة لأنك قد تمتعت ببركة الكهنوت ، ومنذ سنوات طويلة تقف أمام المذبح الأقدس ، مقدماً ذبيحة الأسرار الإلهية . أجابها الأب والدموع فى عينيه : « أيتها الأم الكريمة ، أرى أنك قد مت عن العالم ، ووهبك الله نعماً جزيلة ، إذ عرفت اسمى وكهنوتى مع أنك لم ترينى من قبل ... أطلب بركتك من أجل الله فإننى محتاج إلى صلواتك » . أمام توسلاته التزمت أن تقول : « مبارك الله الذى يهتم بخلاص الناس ونفوسهم » . فأجاب « آمين » . عندئذ انتصبا من سجودهما ، فقالت له : « لماذا أجهدت ذاتك يا رجل الله لكى ترى امرأة عارية مثلى ، مجردة من كل فضيلة ؟ ! » . بعد ذلك سألته عن حال الشعوب المسيحية والرعاة والملوك ، فأجابها الأب زوسيما : « بصلواتك أيتها الأم يهب السيد المسيح سلاماً للجميع . إنما أطلب صلواتك عن العالم كله ، ومن أجلى أنا الخاطىء » .

أجابت « أنت أيها الأب زوسيما كاهن ، صلِّ عنى وعن الجميع فإنك لهذا قد دعيت ، لكن من أجل الطاعة أفعل ما قد سألتنى إياه بسرور » . عندئذ

استدارت نحو الشرق ، ورفعت عينيها نحو السموات وبسطت يديها وبدأت تصلى صلاة طويلة ...

هذا هو عمل الروح القدس ، روح الحب ، يفتح قلوب الكل ، حتى الذين يقطنون الصحراء ولا يرون أحداً فإنهم بشغف يطلبون خلاص العالم كله ! فمع أنها فى الصحراء لكنها لم تنعزل عن الكنيسة ، بل هى عضو حى ، تطلب من أجل كل إخوتها .

فى مصر

إذ أطالت الصلاة جداً ، رفع رأسه إليها ، وللحال سقط على الأرض باكياً ، مردداً يارب ارحم « كيرياليسون » . لقد رأى قدمى المرأة مرتفعتين عن الأرض بنحو ذراع ، فظنها روحاً ، أو أن صلواتها مملوءة رياء . لكنها تطلعت إليه ، وأقامته ، ورشمت نفسها بعلامة الصليب وهى تقول له : « يحفظك الرب من الشرير أيها الأب زوسيما ومن كل شباكه ، فإن حربه هذه ضدنا مُرّة » . إذ سمع الأب هذا القول ورأى هذا المنظر ، أخذ يلح عليها بلجاجة أن تخبره عن قصتها ، وكيف جاءت إلى هذه البرية قائلا لها : « أتوسل إليك من أجل المسيح ربنا الذى ولد من السيدة العذراء ... لا تخفى عن عبدك شخصيتك ، ومن أين جئت إلى البرية ؟ ومتى ؟ وكيف كان هذا ؟ . أخبرينى بكل شىء ، وأعلنى عجائب الله ... فإنك لست تفعلين هذا من أجل المجد الباطل ولا لغاية أخرى سوى إعلان الحق لى أنا الخاطىء غير المستحق . إننى أؤمن أن الله الذى من أجله تعيشين وإياه تخدمين قادنى إلى البرية لكى يُظهر لى طرقه معك . والآن ليس فى قدرتك أن تقاومى تخطيطات الله » . أجابت المرأة : « إننى أخجل جداً يا أبى أن أخبرك عن حياتى الدنسة . اغفر لى من أجل الله ... فإننى لست أهرب من المجد الباطل كما ظننت ، إنما لا تقدر أذناك أن تحتملا سماع شرى ، فستهرب منى كما من حية . نعم ، سوف أخبرك بكل شىء لكى تصلى عنى بغير انقطاع ، لكى أجد رحمة فى يوم الدين ... » عندئذ بدأت تروى قصة حياتها ودموعها على وجنتيها ... « أنا مصرية ، وفى سن الثانية عشرة ازدريت بحب والدى وذهبت إلى

الأسكندرية . إننى أخجل عندما أذكر كيف فقدت عفتى منذ البداية وأسلمت حياتى للشهوات . وإننى أظن أنه خير لك أن أحدثك فى اختصار عن هذا كله لكى تعرف شهواتى ومحبتى للّذات . عندما بلغت السابعة عشر من عمرى ، عشت كما لو كنت أنا نفسى نيران الرذيلة التى تحرق جميع الناس ... لقد أغويت كثيرين ليس جرياً وراء المال ، بل غالباً ما كنت أرفض الأجرة من الذين يريدون دفعها لى . لم أكن أؤمن بالله ، إنما كثيراً ما كنت أقول : سأفعل ما أريد ، وليست قوة تقدر أن توقفنى ! وفى ذات يوم رأيت حشداً عظيماً من الليبيين والمصريين يندفعون نحو الشاطىء . فسألت أحدهم إلى أين يسرع هؤلاء ؟ أجابنى أنهم مبحرون إلى أورشليم لتكريم صليب ربنا المقدس ، حيث يحتفلون بعيده بعد أيام قليلة . فجأة أحسست بشوق للذهاب معهم ، ليكون لى أحباب كثيرون يشبعون شهواتى . فى الحقيقة لم يكن معى مال أدفعه أجرة للرحلة أو لشراء طعام ، لكن معى جسدى الذى أتاجر به ... ماذا أروى لك ، أيها الأب زوسيما ، عما حدث بعد ذلك ؟ لقد ذهبت إلى الشاطىء وتقابلت مع شبان صغار وألزمت هؤلاء البائسين أن يفعلوا ما لم يريدوه ... لقد أسقطت كثيرين وكثيرين فى شِباكى . كنت إناءً للشيطان ! فإننى لم أقنع بهؤلاء الصغار بل أغويت كثيرين فى أورشليم أيضاً ! بغباوة كنت أتفاخر أننى جذبت كثيرين بجسدى وكلماتى الوقحة وضحكاتى الماجنة ... »

عند عتبة الباب

أخيراً فى أورشليم لاحظت جمهوراً عظيماً من السواح يتجه نحو الكنيسة التى أقيمت على قبر المسيح ، فحملنى شغفى أن أنضم إليهم لكى أرى ماذا يفعل هؤلاء . كنت أبذل جهدى وسط الجمهور للدخول من أبواب الكنيسة لكننى فجأة أحسست بقوة توقفنى عن الدخول ... الكل دخلوا بسهولة ، أما أنا فلم أقدر ! شعرت بقوة تصدنى للرجوع ... ضحكت فى داخل نفسى ، ألعل لأننى متعبة ، أو بسبب ضعفى لأننى امرأة . بذلت كل جهدى للدخول ، وللمرة الثانية أوقفت ... لقد منعت من الدخول بقوة عظيمة سرية ... كررت محاولتى للمرة الثالثة أو الرابعة ، لكننى فقدت كل قوتى ... لقد أخذت ركناً وانزويت عند

المدخل .... وعندئذ بدأت أبكى وأنتحب ، قارعة صدرى ، وأتنهد فى أعماق ... « لماذا لم أستطع الدخول ؟ ألعل خطاياى هى التى منعتنى من الدخول ؟ » عندئذ نظرت إلى فوق الباب فلمحت أيقونة كلية الطهر مريم والدة الإله ، فأخجلنى طهر محياها . لقد تجلى قدامى كل بؤسى القديم ، وصارت خطاياى تعذبنى . فانحنيت قدام الأيقونة وطلبت فرصة أخرى لكى أتبع مخلصى . سألت عون العذراء وتوسلت إلى مخلصى أن يخلصنى ويقودنى فى طريقه ... نذرت أننى إذ أنظر خشبة الصليب المقدسة أجحد العالم وملذاته وأذهب إلى حيث يقودنى . وإذ أتممت صلاتى وجدت أنى قد امتلأت ثقة . لقد تركت المكان المنعزل وأخذت مكانى من جديد بين جموع المجاهدين للدخول من أبواب الكنيسة . لقد بلغت إلى الأبواب حيث لم أستطع من قبل ، ودخلت بسهولة إلى الموضع المقدس ... فألقيت بنفسى على الأرض وأخذت أقبل الصليب المقدس بدموع ورعدة . لقد نسيت نفسى حتى الظهيرة ، وأخيراً خرجت من الكنيسة ووقفت أمام أيقونة العذراء والدة الإله ، الموضع الذى فيه أعلنت نذرى . صرخت فى أعماق : « المجد لله الذى يقبل توبة الخطاة عن طريقك أيتها السيدة المملوءة حباً . ماذا أقول أنا الخاطئة ؟ إنه الآن وقت لكى أوفى نذورى ... أمسكى يدى وقودينى فى طريق التوبة ! » . عندئذ سمعت صوتاً ، آمنت أنه من أجلى يقول : « اعبرى الأردن تجدين راحة مجيدة » .

للحال قلت لوالدة الإله : « أيتها السيدة لا تتركينى » . وخرجت من مدخل الكنيسة وأنا أسرع للرحيل . قابلنى احد السواح ، تطلع إلىَّ وأعطانى ثلاث قطع من الفضة ، اشتريت بها ثلاثة أرغفة أخذتها معى فى رحلتى ... اجتزت أبواب المدينة ودموعى لا تجف وعند الغروب بلغت كنيسة القديس يوحنا المعمدان القائمة على شاطىء الأردن ، فقضيت فيها طول الليل أبكى ، وفى الصباح تناولت الأسرار المقدسة وخرجت إلى الشاطىء حيث عبرت إلى الشاطىء الآخر . وجدت نفسى فى البرية ، ومنذ ذلك اليوم صرت غريبة عن الجميع . عشت ملتصقة بإلهى الذى يخلص الجميع من كل ما يدنسهم ومن كل العواصف التى تثور عليهم .]

قاطعها الأب زوسيما قائلا :

ــ أيتها الأم كم لك من السنين ههنا فى البرية ؟

ــ حوالى ٤٧ عاماً على ما أظن .

ــ هل أمضيت كل هذه السنين بلا ألم ، بسبب التغيير المفاجىء لحياتك ؟

ــ إنك تسألنى عن أمور أرتعب من الحديث عنها أيها الأب زوسيما . فإننى إذ أذكر كل المصاعب التى تغلبت عليها والأفكار التى أقلقتنى أخشى أن أسقط تحت تأثيرها مرة أخرى .

ــ لا تخفى شيئاً عنى يا أمى ...

ــ صدقنى يا أبى ، قضيت ١٧ عاماً فى البرية أحارب وحوشاً مفترسة . ففى البداية كانت الحياة فى البرية قاسية للغاية . كنت أتألم من الحنين لحياتى الماضية ، وإلى أصدقائى والأوقات التى كنت أقضيها معهم ، كما كنت أحن للطعام والشراب وما إلى ذلك مما قد اعتدته فى مصر . هنا فى البرية ، كان يصعب على أن أجد جرعة ماء أشربها . كنت أتألم بمرارة ، وكان الضعف يحل بى بسبب الظمأ والجوع ومن شدة حرارة الشمس ، كانت الحياة غير محتملة . كثيراً ما كنت أمرض وكدت أموت ! وإذا كانت ذكريات الحياة القديمة تهاجمنى كنت أخر على الأرض ، وفى دموع أطلب عون الرب ... بماذا أخبرك عن الأفكار التى كانت تثير فىَّ الشهوة ؟ ! كانت نيراناً تشتعل فى قلبى البائس الذى خيل إلىّ أنه احترق تماماً ، وأن الرغبة فى الملذات قامت فيه ... أخيراً شعرت بسلام عظيم فى داخل نفسى ، وأعطانى الرب ما طلبته .

حزنت كثيراً من أجل ماضىَّ المملوء إثماً وأعطانى الرب راحة فى النهاية ...

إذ سمعها الأب زوسيما تذكر مقتطفات من الكتب المقدسة ، سألها : « أين تعلمت الكتب المقدسة ؟ » .

ــ « منذ أن عبرت الأردن لم أر وجه إنسان ، وأنت يا أبى أول من قابلته

هنا . إننى لم أتعلم من الكتب ، لكن كلمة الله نفسه حية وفعّالة تعلم الإنسان المعرفة .

هذه هى كل قصة حياتى ، لم يبق لى إلا أن ألتمس منك الصلاة عنى أنا الخاطئة كما سبق أن طلبت منك منذ البداية من أجل كلمة الله المتجسد .

إذ قالت هذا أطرقت برأسها إلى لحظات مفكرة ، ثم عادت تقول للأب زوسيما : « أسألك يا أبى القديس من أجل ربنا ومخلصنا يسوع المسيح ألا تخبر أحداً بما أعلمتك إياه حتى أنطلق من هذه الأرض . والآن اذهب بسلام ، وفى الصوم الكبير القادم لا تعبر نهر الأردن كالمعتاد بل أقم فى الدير فإنك حتى إن أردت الخروج لن تقدر . وفى الخميس الكبير ، انتظرنى على ضفاف الأردن ومعك جسد المسيح ودمه المحيين ... »

إذ قالت هذا اختفت فى أعماق البرية ، فركع الأب زوسيما وانطرح على الأرض حيث كانت الأم واقفة ، ممجداً الله مقدماً له الشكر .

عاد الأب من البرية وعبر نهر الاردن ورجع إلى الدير فى اليوم المحدد لرجوع الرهبان .

حفظ الأب زوسيما السر طوال العام ، غير متجاسر على الحديث مع أحد فيما قد رآه ، إنما كان يصلى أن يراها دفعة أخرى .

عبر العام وكان طويلا للغاية فى عينية مشتاقاً لو قصر إلى يوم واحد ليرى تلك القديسة السائحة . وعندما حل الصوم الكبير كان زوسيما مريضاً جداً إذ اعترته حمى ، فبقى فى الدير كما سبق أن أخبرته . وفى خميس العهد أخذ جسد ودم ربنا يسوع المسيح المحيين ، وحمل فى سلة قليلا من التين والبلح وقليلا من العدس المبلول بماء ، وإذ بلغ ضفاف النهر جلس منتظراً . طال انتظار الأب فبدأ يشك فى مجيئها معللا ذلك بعدم استحقاقه ، أو ربما جاءت ولم تجده فرجعت ثانية . رفع الأب عينيه إلى السماء وبدأ يصلى متوسلا أن يرى وجه الناسكة إن أراد الرب . وبعد الصلاة نظرها قادمة على سطح المياه نحوه . حاول أن ينطرح الأب أمامها فصرخت فيه وهى لا زالت تسير على المياه « ما هذا الذى تفعله يا أبى ؟

أنت كاهن وحامل للأسرار الإلهية ؟ ! » . حينئذ تقدمت بفرح ، والسلام يملأ قلبها ، وطلبت بركته وتناولت الأسرار الإلهية . بعد قليل رفعت ذراعيها نحو السماء وتنهدت فى داخلها قائلة « الآن يا سيد أطلق عبدتك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك » .

استدارت نحو الأب تقول به : « اغفر لى يا أبى فإن لى طلبة أخرى . ارجع الآن إلى ديرك ولتحفظك النعمة الإلهية . وفى العام القادم « عد إلى الموضع الذى فيه تقابلنا لأول مرة ، وهناك سترانى مرة أخرى بمشيئة الله

أجابها « لى اشتياق أن أتبعك فى البرية (سالكاً على منوالك) ...» .

ثم طلب منها أن تأخذ قليلا من الطعام الذى أحضره إليها . فلمست العدس بطرف أصابعها ، وأخذت ثلاث حبات ووضعتها فى فمها ، وهى تقول إن نعمة الروح القدس تكفى أن تحفظ طبيعة النفس بلا فساد ، ومرة أخرى طلبت صلواته عنها .

أخيراً عبرت الأردن فوق المياه واختفت فى البرية ، أما هو فعاد إلى ديره حزينا .

انقضى عام آخر وجاء الأب إلى البرية وبلغ إلى الموضع المعين فرأى جسدها ملقى على الرمال وقد فارقته الحياة . تألم زوسيما جداً وركع بجوارها يبكى كثيراً ، مصلياً المزامير الخاصة بالجنازات ... وإذ بدأ يفكر كيف يدفنها ، لاحظ بجوار رأسها قد كتب على الرمل : « أيها الأب زوسيما ، فى ليلة آلام الرب ، فى الخميس الكبير ، قد رحلت إلى مخلصى . ادفن جسد مريم البائسة فى هذا الموضع واترك التراب أن يعود إلى التراب ، وصلى من أجلى ... » تعجب الأب كيف رجعت إلى هذا الموضع بعد تناولها من الأسرار الإلهية العام الماضى فى نفس اليوم فى ساعة واحدة وماتت ، وكيف بقى جسدها بغير فساد طوال هذا العام ؟ ! فى هذه اللحظة جاء أسد من الغابة ولثَمَ قدميها وبدأ يحفر حفرة تكفى لدفن الجسد ، أما الأب فغسل قدميها بدموعه ، طالبا صلواتها من أجل الجميع ، مواريأً جسدها فى التراب .

الرهبنة المصرية والعالم المسيحى

يعتبر قيام الرهبنة فى مصر أعمق حركة إنعاش روحى حدثت فى تاريخ الكنيسة ، فقد انسحب أناس من كل طبقات المجتمع إلى برارى مصر ليمارسوا الحياة الملائكية تحت قيادة الآباء المصريين . ازدحمت الأديرة برهبان من أمم متنوعة : من يونانيين ورومانيين وكبادوك وليبيين وسريان ونوبيين وأثيوبيين وغيرهم[1] .

فى القرنين الرابع والخامس كان ينظر إلى مصر نظرة قدسية عظيمة خلال العالم المسيحى ، فقد كسبت شهرة بكونها أرض التقوى ، ينظر إلى قائدى الرهبنة كأمثلة أولى للرهبان المسيحيين فى كل العالم .

جاء كثيرون لزيارتها فى ولاء وطاعة لقديسيها ، وتعتبر كتابات هؤلاء الزائرين من أمتع أدب الكنيسة الأولى[2] .

روحانية الرهبنة المصرية وتدابيرها كان لها أثرها العميق على حياة الكنيسة فى الشرق والغرب .

الآن نقدم عرضاً مختصراً لأثر الرهبنة المصرية على العالم المسيحى ككل .

١ ــ يعتبر القديس أثناسيوس ، البابا والمعلم ، الذى جلس عند قدمى القديس أنطونيوس ، هو المسئول بحق عن تقديم الحركة الرهبانية إلى الحياة الرومانية الدينية ، خلال نفيه فى تريف (٣٣٦ ــ ٣٣٧ م) . وفى عام ٣٣٩ اضطر إلى الهروب إلى روما مع الراهبين أمونيوس واسيذورس ، فكان لبساطتهم وقداستهم الأثر الفعّال على الكثيرين .

٢ ــ كتب القديس أثناسيوس كتابه : « حياة أنطونيوس » ، حوالى عام ٣٥٧ م ، إذ شعر بالتزام أن يؤرخ للقديس أنطونيوس ، مترجياً بهذا أن تقتفى

الكنيسة الغربية أثر القديس أنطونيوس فى قداسته . بحق دعى القديس غريغوريوس النزينزى هذا الكتاب : « تدابير الحياة الرهبانية فى صورة قصصية »[٣] . هذه السيرة تُرجمت فى الحال إلى اللاتينية مرتين ، كان لها دورها الحيوى فى تقديم الفكر الرهبانى والمثاليات الرهبانية إلى الغرب . هذا الكتاب قرأه القديس أغسطينوس — أبو الرهبنة فى شمال أفريقيا — وذلك فى اللحظة الحاسمة التى أخذ فيها قراره بالتوبة . حقا إنه لم يزر مصر قط ، لكنه أعجب بهذا الكتاب ، وقد حدثنا عن أثره على حياته وعلى حياة الكثيرين من معاصريه[٤] .

٣ — كان للأنظمة الباخومية أثرها الفائق على كل الشرائع الرهبانية المتتالية ، فقد تُرجمت إلى اليونانية بواسطة القديس بالاديوس فى كتابه « التاريخ اللوسياكى »[٥] ؛ كما ترجمت إلى اللاتينية بواسطة القديس جيروم . زار القديس باسيليوس مؤسس الرهبنة البيزنطية مصر عام ٣٥٧ — ٣٥٨ م ، وقد تأثر جداً بما شاهده فى الأديرة الباخومية[٦] ، مستخدماً ذلك فى القوانين الرهبانية التى أوجدها[٧] ، وإن كان قد لاحظ أن الأديرة الرهبانية متسعة جداً ، أشبه بمدن أكبر من طاقة أب ليقوم بتدبيرها ، مفضلاً أن تكون الأديرة فى حجم أصغر ليمارس الرئيس أبوته على رهبانه .

قوانين الأب بندكت الذى من Nursia (حوالى ٤٨٠ م — ٥٥٠) ، المعروف كأب للرهبنة الغربية تمثل الدور المصرى فى كثير من عباراتها . هذا وقد عُرف الأب بندكت من Aniane (حوالى سنة ٧٥٠ — ٨٢١ م) باستخدامه للقوانين الباخومية فى حركة التجديد الكبرى .

٤ — القديس يوحنا كاسيان (سنة ٣٦٠ — ٤٣٥ م) ، الذى جال العالم يطلب الكمال ، وجده فى الرهبان المتواضعين البسطاء بمصر بيت القداسة[٨] . وُلد القديس يوحنا كاسيان ونشأ فى جنوب بلاد الـغال (فرنسا) من أبوين غنيين ، نال ثقافة عالية ، وقد قرر أن يقوم برحلة مع صديقه جرمانيوس إلى الأراضى المقدسة . هناك فى بيت لحم أخذ قراره بالنذر الرهبانى ، وذلك فى مغارة المهد . فى وسط الجماعة الرهبانية ببيت لحم أقسم أن يزور مصر وأن يعود

إليهم[٩] ، لكنه ما أن بلغ مصر (مع صديقه) حوالى سنة ٣٨٥ م ، حتى اقتنعا أنهما لم يعرفا شيئاً عن الكمال قبل وصولهما مصر ، فحسبا تركهما مصر يمثل خسارة فادحة تصيب نفسيهما . وبقى القديس كاسيان فى مصر سبع سنوات حيث تأثر جداً بالأب أوغريس البنطى .

نسمع عنه بعد ذلك كشماس كنيسة القسطنطينية حيث أرسله القديس يوحنا الذهبى الفم إلى البابا أنوسنت الأول فى سفارة . بعد هذا هيأ نفسه للإستقرار نهائياً فى الغرب . حوالى عام ٤١٥ م ، أنشأ ديرين بالقرب من مرسيليا ، وهناك كتب كتابيه المشهورين : « المعاهد (الدساتير) » ، « المناظرات » .

عالج هذان الكتابان حياة آباء الرهبنة المصرية ، وعاداتهم ، وحكمتهم ، وقوانينهم . كتاب الدساتير يحث على كمال الإنسان الخارجى ، مقدماً القوانين العادية للحياة الرهبانية ، ومناقشاً العوائق (الخطايا) الثمانية الرئيسية ضد كمال الراهب . صار هذا الكتاب أساساً لكثير من القوانين الغربية ، وقد كتب للمبتدئين فى الحياة الرهبانية . أما كتاب « المناظرات » فيقدم محاورات مع بعض قادة الرهبنة القبطية العظماء بخصوص الإنسان الداخلى وحياة التأمل .

٥ ــ عاش الأب أوغريس البنطى (٣٤٦ ــ ٣٩٩ م) الذى احتلّ مركزاً رئيسياً فى تاريخ الروحانية المسيحية[١٠] ، كراهب فى منطقة نتريا لمدة عامين ، ثم ١٤ عاماً فى منطقة القلالى .

انتهج الأب أوغريس (إيفجاريوس) الخط الأوريجانى ، ومع هذا فيعتبر مفكراً أصيلاً ، ومؤسساً لعلم الروحانية المسيحية . إنه أول راهب مصرى (وإن كان بنطى الجنسية) يكتب بتوسع عن الروحانية والنسك . منذ عام ٥٥٣ م (مجمع القسطنطينية الثانى) . أُدين هذا الأب عدة مرات بواسطة الكنائس الخلقيدونية بسبب اتجاهاته الأوريجانية .

سكن معه بالاديوس وأُعجب به . زار كاسيان وجرمانيوس منطقة القلالى حيث كان هو هناك ، وإن كان كاسيان لم يذكره بالاسم ، غير أن كتاباته

جاءت تعتمد على أوغريس مع بعض التعديلات لتناسب العقلية الغربية .

كان لإيفجاريوس أيضاً أثره على المفكرين البيزنطيين مثل يوحنا كليماكوس وهيسيخيوس ومكسيموس المعترف ، ودورثيؤس ، وسمعان اللاهوتى الجديد ، كما كان له أثره على مفكرين سريان مختلفين .

٦ — يعتبر القديس جيروم (٣٤٢ — ٤٢٠ م) وروفينوس (٣٤٥ — ٤١٠م) اثنين من كثير من الآباء الذين فكروا فى اقتناء معرفة عن الرهبنة بالانطلاق إلى مصر (كمصدر أصيل لها) .

قام القديس جيروم برحلته إلى مصر ، وكان فى صحبته القديسة باولا (٣٤٧ — ٤٠٤ م) ، وهى أرملة رومانية وأم لخمسة أبناء ، من نسب شريف . أقاما زماناً طويلاً فى نتريا ، وزارا منطقة الإسقيط حيث التقيا بالقديس مقاريوس الكبير . منذ سنة ٣٨٦ م استقرت باولا فى بيت لحم ، حيث أنشأت ديرين أحدهما للرجال والآخر للراهبات .

أما روفينوس تيرانيوس فولد فى أكويلا بشمال إيطاليا ، ذهب إلى مدرسة بروما حيث كوّن صداقة مع القديس جيروم . حوالى عام ٣٧٢ م ذهب إلى مصر حيث التقى بالقديسة ميلانيا الكبرى ، وزار رهبان جبل نتريا . زار أيضاً منطقة الإسقيط ومنطقة القلالى والتقى مع كثير من آباء البرية . أنشأ مع القديسة ميلانيا ديراً على جبل الزيتون . ترجم إلى اللاتينية كتابه المشهور : « تاريخ رهبان مصر » .

٧ — بالاديوس (حوالى ٣٦٥ — ٤٢٥ م) أسقف هيلينوبوليس فى بيثينية ، مؤرخ الرهبنة الأولى . يحتمل أن يكون من غلاطية ، قضى سنوات كثيرة مع رهبان مصر ، حيث تتلمذ على يدى إيفجاريوس البنطى[١١] . وضع كتابه المشهور « التاريخ اللوسياكى » حوالى سنة ٤١٩ م ، ويعتبر من أهم الكتب التى لازالت موجودة والتى تحوى تاريخ الرهبان المصريين الأوائل وحياتهم .

٨ — تتلمذ مار أوجين على يدى القديس باخوميوس . بعد تركه مصر ذهب إلى نصيبين فى فارس ، حيث أنشأ ديراً على الجبال ما بين ٣٣٦ م ، ٣٤٥ م .

قام بترجمة القوانين الباخومية لنظام الشركة إلى الفارسية والسريانية فى منتصف القرن الرابع . بحسب التقليد الكلدانى يُقال إن سبعين راهباً مصرياً قاموا بمساعدته فى إنشاء عدة أديرة فى نصيبين(١٢) .

٩ ــ القديس إيلاريون من فلسطين (حوالى ٢٩١ ــ ٣٧١ م) ، مؤسس نظام التوحد هناك ، ذهب إلى الإسكندرية للدراسة . خلال مدة إقامته قبل المسيحية ، وإذ تأثر بالقديس أنطونيوس انطلق إلى برية مصر ليمارس الوحدة لفترة قصيرة . وفى عام ٣٠٦ م عاد إلى أرضه حيث استقر فى البرية جنوب ماجوما ، بجوار غزة ، ليمارس حياة النسك بطريقة جادة وعنيفة(١٣) .

١٠ ــ القديس أبيفانيوس (حوالى سنة ٣١٥ ــ ٤٠٣ م) أسقف سلاميس بقبرص ؛ وهو مواطن من فلسطين ، تهذب بالفكر الرهبانى فى مصر ، فى حوالى عام ٣٣٥ م أنشأ ديراً فى Besanduk بجوار Eleutheropolis فى اليهودية .

١١ ــ حوار سلبيكوس ساويرس ، كُتب فى جنوب بلاد الغال ، حوالى عام ٤٣٠ م ؛ كتبه رحالة يدعى بوستيميان . لقد سجل فى الكتاب ما رآه حين زار مصر فى عام ٣٩٩ م ، وهو يقدم نظرة رائعة للرهبنة المصرية .

١٢ ــ إثيريا (إيجريا) ، تُعتبر واحدة من نساء كثيرات أردن أن يتعلمن الرهبنة . ربما كانت « أما » (رئيسة دير) أو راهبة أسبانية ، من القرن الرابع ، زارت مصر ، والأراضى المقدسة ، والرُّها ، وآسيا الصغرى ، والقسطنطينية .

١٣ ــ القديسة ميلانيا الكبرى (حوالى ٣٤٢ ــ ٤١٠ م) ، سيدة رومانية من أصل أرستقراطى ، غنية جداً ، تبنت الحياة النسكية عند موت رجلها المبكر . حوالى عام ٣٧٢ م تركت روما وانطلقت إلى مصر ثم فلسطين . رافقها روفينوس الذى من أكويلا ، وقد أقامت ستة أشهر فى منطقة نتريا . أنشأت مع روفينوس ديراً على جبل الزيتون .

١٤ ــ أقام القديس يوحنا الذهبى الفم فى أحد الأديرة الباخومية فى صعيد مصر من سنة ٣٧٣ حتى ٣٨١ م (١٤) . لقد تأثر جداً بالرهبنة القبطية كما تعلن

كلماته : [الآن ، إن أتيت إلى برية مصر ترى البرية وقد صارت أفضل من أى فردوس . ترى ألوفـا من الطغمات الملائكية فى شكل بشرى ... يشرق ملكوت المسيح ببهائه ... السماء بكل خوارس كواكبها ليست فى مجد برية مصر بخيام رهبانها](١٥) .

+ + +

الحركة الرهبانية فى الكنيسة القبطية اليوم

عندما يتدين الشباب القبطى جداً غالباً ما ينجذبون للحياة الرهبانية أكثر من العمل الكرازى . يرجع هذا إلى التربية الرهبانية التى تتغلغل فى كل مناهج الحياة الكنسية والعبادة . فكنيستنا تحمل أتجاهاً نسكياً ليس فقط داخل جدران أديرة الرجال والنساء ، بل وفى كل حياتها . ونحن فى الواقع لا نستطيع أن نقسم الحياة الكنسية الأرثوذكسية إلى حياة رهبانية وأخرى كرازية (عمل) ، إذ نرفض الثنائية ، مؤمنين أن الحياة الرهبانية وحياة الكرازة يمثلان حياة إنجيلية واحدة . فالحياة الرهبانية الحقة تشهد للحياة الإنجيلية وتوسع قلوب البشرية للكرازة حتى خلال عبادتهم وحبهم وسلوكهم . ومن الناحية الأخرى ، فإن الكرازة الحقيقية تجتذب الكارز ومن يخدمهم لكى يمارسوا بنعمة الله الحياة النسكية ، كل قدر قامته .

ولعل أحد ملامح الكنيسة القبطية الأرثوذكسية اليوم هو التزايد المستمر فى راغبى الالتحاق فى الحياة الديرية ، بجانب تزايد عدد الكهنة والعذارى (المكرسات) . لقد انشغلت الأديرة حالياً فى التعمير ، وإننا نرجو قيام قيادات رهبانية بعمل نعمة الله لتزدهر الأديرة كما فى القرنين الرابع والخامس .

وفى الوقت الحاضر يوجد عشرة أديرة للرجال وستة أديرة للنساء ؛ أديرة الرجال منتشرة فى المناطق الصحراوية أما أديرة النساء ففى داخل المدن . وأديرة الرجال هى :

١ ــ دير القديس أنبا أنطونيوس الكبير فى الصحراء الشرقية بالقرب من البحر الأحمر .

٢ ــ دير الأنبا بولا رئيس السواح فى نفس الصحراء جنوب شرقى الدير السابق .

٣ ـــ ٦ ـــ أربعة أديرة فى الصحراء الغربية بوادى النطرون : دير القديس الأنبا بيشوى الذى أقام فيه قداسة البابا شنودة الثالث مقراً بابوياً لحبه الشديد للحياة الرهبانية ؛ ففى وسط مسئولياته الهائلة يقضى فى الغالب ثلاثة أيام أسبوعياً فى الدير (بخلاف فترات الخلوة الطويلة خاصة أثناء بعض الأصوام) .

دير السيدة العذراء (السريان) وهو مجاور للدير السابق .

دير العذراء مريم (البراموس) ، ودير القديس مقاريوس الكبير .

٧ ـــ دير الأنبا صموئيل المعترف فى برية أنتينوه ، يمكن الوصول إليه عن طريق الفيوم (أو عن طريق قرية الزورة بجوار مغاغة) .

٨ ـــ دير مار مينا بمريوط ، جنوب غربى الإسكندرية ، أسسه المتنيح قداسة البابا كيرلس السادس (به جثمانه الطاهر) ولا يبعد كثيراً عن آثار كاتدرائية القديس مينا التى بنيت فى عهد الامبراطور أركاديوس (٣٩٥ ـــ ٤٠٨ م) .

٩ ـــ دير القديس باخوميوس بإدفو فى صعيد مصر (قام بتعميره نيافة الأنبا هدرا أسقف أسوان الحالى) .

١٠ ـــ دير السيدة العذراء الذى يعرف بالمحرق ، على الجانب الغربى من الوادى بالقرب من مدينة أسيوط .

توجد آثار لأديرة كثيرة لم تعمر بعد بالرهبان ... وإننا نرجو من الرب أن تزدهر .

أما أديرة النساء الستة فهى :

١ ـــ دير القديس مار جرجس داخل أسوار حصن بابليون بمصر القديمة ؛ فى هذه المنطقة عاش إرميا النبى عندما أُلزم بالذهاب إلى مصر خلال السبى البابلى .

٢ ـــ القديس مرقريوس (أبى سيفين) بمصر القديمة أيضا ، خارج أسوار الحصن .

٣ ، ٤ ـــ دير القديسة مريم ودير الشهيد مار جرجس ، كلاهما فى قلب القاهرة ، بحارة زويلة .

٥ ـــ دير الأمير تادرس ، فى قلب القاهرة بحارة الروم ، بُنى فى القرن العاشر .

٦ ـــ دير القديسة دميانة ، يقوم فى نفس الموقع الذى فيه استشهدت القديسة عام ٣٠٣ م ، فى منطقة البرارى بالقرب من دمياط (ميناء على الفرع الشرقى للنيل) .

+ + +

المحتويات



يطلب من :

مكتبة مارمرقس بالأنبا رويس / العباسية / القاهرة ت { ٤٨٨٢٤٥٤ ٦٨٢٥٣٧٠

مكتبة مارجرجس سبورتنج / الإبراهيمية / الإسكندرية

مكتبة مارمرقس والأنبا بطرس / سيدى بشر / الإسكندرية



الثمن ١٧٥ قرشاً